موقف الحسن البصري
من الدولة الأموية

دكتور/ أحمد كامل محمد صالح
(رحمه الله تعالى)
مدرس بقسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المبحث الأول
نشأته وعلمه

الحسن البصرى سيد من سادات التابعين وأبرز علماء عصره[1]، كان أبوه "يسار" من سبى مدينة ميسان [2] مولى لزيد بن ثابت الأنصارى، وأمه، خيرة مولاة لأم المؤمنين أم سلمة المخزومية، وأعتق أبوه وأمه، وولد الحسن فى المدينة سنة ٢٢هـ فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. [3]

نشأ الحسن البصرى فى المدينة وحظى ببركة الزمان والمكان، فقد كانت السيدة أم سلمة رضي الله عنها، تسكته بثديها وهو طفل إذا بكى وأمه فى بعض حوائجها فدر عليه الثدى؛ فقيل: إن الحكمة والفصاحة التى كان عليها الحسن من بركة ذلك [4]. وكانت أم سلمة رضي الله عنها تخرجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعون له فأخرجته يومًا إلى عمر بن الخطاب؛ فدعا له قائلاً: " اللهم فقهه في الدين،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ٢/ ٦٩ تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار صادر. بيروت.

(٢) ميسان بليدة بأسفل البصرة السابق صـ٧٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٥٦، ١٥٧. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
والبلاذرى: فتوح البلدان صـ٣٣٥، لجنة تحقيق التراث، بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ٨٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٦٩، ٧٠ والذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ٧/ ٥١ تحقيق عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى. بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

وحببه إلى الناس "[1]، وأمضى الحسن فترة من صباه فى وادى القرى؛ فكان ذلك أدعى لفصاحته[2]، ثم عاد إلى المدينة وأخذ يدرك ما حوله ويتأثر به، وأتاح له اتصال أمه ببيوت أزواج النبي ﷺ أن يتردد عليهذه البيوت الكريمة التى كانت مراكز تتلى فيها آيات الله والحكمة[3]، وكانت أمه على قدر من العلم والمعرفة، وكانت تقص على النساء[4]، وتروى الأحاديث عن بعض الصحابة، وانتفع الحسن بذلك، فكان يروى عن أمه عن أم سلمة[5]. وتردد الحسن على المسجد النبوى الشريف الذى كان منارة علم، فحفظ القرآن الكريم[6]، وتعلم القراءة والكتابة، وضبط الحساب، وكان يعى ويحفظ أحاديث الصحابة الكرام عن رسول الله ﷺ وكلامهم فى سيرته، وانطبعت فى ذاكرته سيرة العبودية والصفاء و الزهد التى كان عليها ﷺ، وروى فى ذلك أحاديث[7]. ورأى الحسن عددًا كبيرًا من الصحابة الكرام ممن شهد بدرًا فى المدينة وخارجها، وظلت سيرتهم فى الجد والالتزام ماثلة أمام عينيه طوال حياته، وقال: رأيت سبعين بدريًا لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب "[8]، وممن رآهم الحسن أو روى عنهم عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وطلحة، والزبير، وابن عباس، وابن عمر، وجابر بن عبدالله،

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٦٤، ٤٦٥. تحقيق مأمون الصاغرجى وإشراف شعيب الأرنؤوط طبعة ١١. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٥٧، وابن خلكان ٢/ ٧٠، وابن حجر: تهذيب التهذيب جـ٢، صـ٢٦٣ دار الكتاب الإسلامى: القاهرة.

(٣) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦١.

(٤) ابن خلكان: السابق ٢/ ٧٢.

(٥) ابن سعد: السابق ٧/ ١١٤.

(٦) البخارى: التاريخ الكبير جـ١ق٢/ ٢٨٩ طبع تحت رعاية الدكتور محمد عبد المعين خان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(٧) انظر ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٤٠، ٤٩، ٥٠، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجى، المطبعة الرحمانية، مصر/ ١٣٥هـ - ١٩٣١ تقديم حسن السندوبى.

(٨) السابق ٥٩.

وأبو هريرة [١]. وتأثر الحسن بالصحابة حتى كان يشبه بهم، وكان أشبه الناس رأيًا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه [٢].

عاش الحسن فى المدينة أيام الفتنة التى كانت فى نهاية عهد عثمان، ورأى عثمان وهو يحاول أن يتجنب الفتنة، وشهد يوم الدار، وحدث عن بعض مشاهد الفتنة [٣]، وسمع السيدة عائشة من حجر أزواج النبي ﷺ وهى تقول: " ألا إن نبيكم قد برئ ممن فرق دينه واحتزب، وتلت ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شيء﴾ [٤] . وعندما استشهد عثمان رضي الله عنه سنة ٣٥هـ كان الحسن فى الرابعة عشرة من عمره [٥]، وتطورت الفتنة، وكانت معركة الجمل فى ربيع الآخر سنة ٣٦هـ، ومعركة صفين فى المحرم سنة ٣٧هـ، وارتحل الحسن مع أسرته من المدينة إلى البصرة بعد معركة صفين، فقد سئل "متى عهدك بالمدينة قال ليالى صفين " [٦] وكان رحيلهم إلى البصرة بعد صفين بسنة [٧]، أى فى سنة ٣٨ هـ.

كان مسجد البصرة زاخرًا بدروس العلم؛ فواصل الحسن فيه حياته التعليمية، وأخذ عن ابن عباس رضي الله عنه [٨] وتعلم القراءات عن العالم الكبير حطان الرقاشى [٩]، وكان متدرجًا فى تعلمه القرآن وتفسيره، وأحكامه، فلا ينتقل من سورة إلى أخرى حتى يتقنها [١٠]، وأخذ عن عدد آخر من الصحابة

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٧/ ١٥٧ والذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٤٩.

(٢) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦١، ١٦٢.

(٣) الذهبى: السابق ٧/ ٥١، وانظر إحسان عباس: الحسن البصرى، ص ٢٥، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٢م.

(٤) إحسان عباس: السابق ٢٥ . راجع سورة الأنعام: من الآية ١٥٩ .

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٥٧، والذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٥١.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٥٧.

(٧) السابق نفس الصفحة، والبلاذرى: فتوح البلدان ٣٣٥.

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين: ١/ ٨٥، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٩) الذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٤٩-٥١.

(١٠) ابن العماد شذرات الذهب ١/ ١٣٧ مكتبة القدسي - القاهرة، حسام الدين القدسي ١٣٥٠هـ.

منهم: عمران بن الحصين وأنس بن مالك، وعبدالرحمن بن سمرة، وأخذ عن الأحنف ابن قيس[1]، وحدث وأخذ عن جماعة من علماء التابعين، منهم العالم الزاهد عامر بن عبدالقيس التميمى[2]، والعالم الزاهد هرم بن حيان العبدى[3]، هذا إلى جانب جلوسه فى حلقات الأدب واللغة، التى كان يموج بها مسجد البصرة الزاهرة.

ولم تقف حياة الحسن البصرى عند طلب العلم والاهتمام به، وإنما رأيناه يشارك لمدة ثلاث سنوات فى الفتوحات الإسلامية فى الجبهة الشرقية مع الصحابى الجليل عبدالرحمن بن سمرة الذى تولى أمر سجستان سنة ٤٣هـ ورأى الأبطال مثل: قطرى بن الفجاءة، وعباد بن الحصين[4] فى ميدان القتال، وأبدى شجاعة بالغة فى قتال المشركين حتى إنه كان يتقدم الصفوف[5]، وفى سنة ٥١هـ استعمل الربيع بن زياد على خراسان فى عهد معاوية، فعمل الحسن كاتبًا معه[6]

وتوفى الربيع بن زياد ٥٣هـ [7]، فعاد الحسن إلى البصرة وتفرغ للحياة العلمية، وظهر علمه وبان فضله، وتصدر الإفتاء والتدريس والوعظ مدة طويلة من حياته؛ حتى قال عنه بعض العلماء: ما أشبِّه الحسن إلا بنبى أقام فى قومه ستين عامًا يدعوهم إلى الله تعالى [8]، وقد توفى الحسن سنة ١١٠هـ وهذا يعنى أنه تصدر للتعليم فى حوالى سنة ٥٠هـ قبل أن يذهب كاتبًا مع الربيع بن زياد، وواصل التصدر للتدريس فى مسجد البصرة بعد عودته إلى البصرة لما

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٩٥.

(٢) السابق ١٠٦.

(٣) السابق ١٣١.

(٤) السابق صـ١٥٧، ١٧٥، والبلاذرى: فتوح البلدان ٣٨٤.

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٩، وانظر ابن حجر: تهذيب التهذيب جـ٢ صـ٢٧٠.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٤٩ ، وابن حجر تهذيب التهذيب جـ٢ صـ٢٦٣، وابن قتيبة: المعارف ٤٤١ تحقيق ثروت عكاشة، دار الكتب ١٩٦٠م.

(٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٥ صـ٢٩١ ، وابن حجر: تهذيب التهذيب جـ٢ صـ٢٦٥.

(٨) الذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٥٠

توفي الربيع سنة ٥٣هـ، وكان " عالمًا عاليًا رقيقًا فقيهًا ثقة مأمونًا عابدًا ناسكًا كبير العلم وفصيحًا جميلاً " (١)، وصار صاحب مدرسة فكرية ضخمة للغة والأدب والعقيدة والشريعة والأخلاق والرقائق، وذاع صيته فى الآفاق وتتلمذ على يديه الكثير من العلماء والدارسين وكان له " مجلس خاص فى بيته لا يكاد يتكلم فيه إلا فى معانى الزهد (٢)، فأما حلقته فى المسجد فكان يمر فيها الحديث والفقه وعلوم القرآن واللغة وسائر العلوم، وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص(٣).

ومما يدل على صدارته ومكانته أن أنس بن مالك الصحابي الجليل سئل فى مسألة فقال: عليكم بمولانا الحسن فسلوه، فقالوا يا أبا حمزة نسألك وتقول: سلوا مولانا الحسن فقال: إنا سمعنا وسمع فحفظ ونسينا "(٤). وقدم مكة حاجًا فى آخر عمره، فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فحدثهم، وكان ممن أتاه مجاهد وعطاء وطاووس وعمرو بن شعيب، وهم من أكابر العلماء فى عصر التابعين، فقالوا أو قال بعضهم: " لم نر مثل هذا قط "(٥). وبلغ من شدة تأثير مواعظ الحسن البصرى ودروسه فى الناس أن قال بعض علماء عصره: " لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة فهو يخبر عما عاين " (٦)، وقال البعض الآخر مازال الحسن يعى الحكمة حتى نطق بها (٧)، وكان إذا ذكر عند محمد الباقر بن على زين العابدين قال عنه: " ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء "(٨). وادعته

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٥٧

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام جـ٧/ ٦٢.

(٣) الذهبى: السابق جـ٧، صـ٦٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٧٦، وابن حجر: تهذيب التهذيب جـ٢، صـ٢٦٤.

(٥) ابن سعد: السابق ٧/ ١٥٨.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام ٧/ ٥٠، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٢، ٢٦٤.

(٧) الذهبى: السابق جـ٧، صـ٥٦.

(٨) أبو نعيم: حلية الأولياء: صـ١٤٧.

الفرق المختلفة [١]، كل تريد نسبته إليها لمكانته، وكان قدوة للناس؛ إذ كان أترك الناس لما ينهى عنه [٢] وصار شيخ البصرة[٣]، واحتج الناس بأقواله وأفعاله[٤] وقبلوا شفاعته حتى فى الدماء[٥]، وعندما مات فى أول رجب سنة ١١٠هـ، كانت جنازته مشهودة، وصلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة، وشيعه الخلق وازدحموا عليه؛ حتى إن صلاة العصر لم تقم فى الجامع فى ذلك اليوم[٦] لانشغال الناس بجنازته.

وهذا الرجل الكبير برئاسته العلمية وقيادته الفكرية ومكانته عند الخاصة والعامة كان له وزنه الكبير، وتأثيره فى الحياة السياسية فى عصره؛ فقد كان " من رءوس العلماء فى الفتن والدماء "[٧]؛ أى فى تاريخ الحروب والثورات، وكانت تثار فى دروس المساجد مناقشات حول ما وقع بين الصحابة من فتن وما حدث من تطورات سياسية ودستورية خلال العصر الأموى، وأخذ الناس يتساءلون عن المخطئ والمصيب فى هذه الفتن؛ هل كان عثمان على صواب ؟ وهل أخطأ قاتلوه ؟ وهل أخطأ علىّ أم أصاب فى مواجهة أصحاب الجمل ؟ وهل أصاب عندما قبل التحكيم ؟ وما الرأى فى استيلاء الأمويين على الخلافة؟ وهل كانت سياستهم صحيحة ؟ وما الرأى فى الخروج على الخلفاء لظلمهم أو ظلم عمالهم ؟ وكان العراق ميدانًا لأكثر الحروب والفتن، وأهله أكثر الناس كلامًا حولها، وأخذت الفرق الدينية فى التكون وكل فرقة تحمل اتجاها سياسيًا[٨]،

---

(١) انظر الدكتور على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ٢/ ١٦٠ الطبعة الثالثة القاهرة - دار المعارف ١٩٦٥.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ١٩٨، والذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧٦.

(٣) الجاحظ: السابق ١/ ١٠١.

(٤) ابن سعد: السابق ٧/ ١٧٨.

(٥) الجاحظ: السابق ١/ ٢٦١.

(٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٧.

(٧) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦٣.

(٨) انظر أحمد أمين: فجر الإسلام ١٨٢/ ١٨٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م لجنة التأليف والترجمة والنشر، وانظر الدكتور محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية صـ٨٠. الطبعة السادسة ١٩٧٦، دار التراث. القاهرة

وكانت هذه المسائل وأمثالها تثار فى مجلس الحسن البصرى، وكان لابد من دراستها والتأمل فيها للإجابة عنها؛ ولذلك " تكونت حول الحسن مدرسة نقد تاريخى " [١]، فكان هناك تقييم سياسى للأحداث والتطورات السياسية فى عصره، وسنرى هذا في المبحث التالي.

* * * *

المبحث الثاني

نقد الأمويين وتقييم خلافتهم

كان قيام الخلافة الأموية تطوراً دستوريًا كبيراً فى الدولة الإسلامية؛ إذ لم تقم هذه الخلافة على الاختيار الحر والرضا من جميع الأمة، وإنما بايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة بعد الاتفاق على التحكيم وقبل اجتماع الحكمين سنة ٣٨هـ [٢]، ولكنه ظل يُدعى بالأمير حتى استشهد على بن أبى طالب سنة ٤٠هـ، فبويع له بالخلافة فى بيت المقدس فى هذه السنة[٣]، ورأى الحسن بن على - الذى بايعه أهل الكوفة بالخلافة بعد استشهاد أبيه - أن القوة السياسية والعسكرية فى صالح معاوية؛ فبايعه بالخلافة سنة ٤١ هـ حقنًا للدماء، وبايعه أهل الأمصار [٤]، ثم أسس معاوية لنظام جديد على الدولة الإسلامية هو نظام الوراثة فى الحكم؛ بتولية ابنه يزيد من بعده، واستمرت هذه الخلافة يتوارثها بنو أمية حتى سنة ١٣٢هـ.

وقد عاصر الحسن البصرى (٢٢-١١٠هـ) أكثر الخلفاء الأمويين من عهد معاوية (٤٠-٦٠هـ) إلى عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ)، ودخل فى

---

(١) الدكتور محمد ضياء الدين الريس: السابق صـ٨٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٣: ١٧٨، طبعة بيروت، دار الكتاب العربى، مراجعة نخبة من العلماء، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٣) السابق: ٢٠٢.

(٤) السابق ٣ / ٢٧١ - ٢٧٣ (ط١ - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م).

طاعتهم، وأعطاهم بيعته، وكان يدعو الناس إلى عدم الخروج عليهم[1]، ولا يعنى ذلك أنه كان راضيًا عن أكثر خلفائهم وعن سياستهم، وإنما كان مثل كثير من الفقهاء من الصحابة والتابعين الذين أعطوا بنى أمية البيعة تجنبًا للفتن وإراقة الدماء، وإقرارًا بالأمر الواقع، معتبرين ذلك أمر ضرورة[2]. ولكن هذا لم يمنع بعضهم من إعلان رأيه فى الأمويين وخلافتهم. ولما كان الحسن البصرى من رءوس العلماء فى تاريخ الحروب والثورات - وكان صريحًا شديدًا فى التعبير عن رأيه - رأيناه يخوض بحر السياسة فى عصره، ويعلن عن موقفه فى كثير من قضاياه وأحداثه السياسية، وقد كان للأمويين عندما تولوا أمر الخلافة حسناتهم، وكانت لهم أيضًا أخطاؤهم؛ فأعلن الحسن البصرى رأيه فى الأمويين وخلافتهم، وانتقد ما كان يراه فى حاجة إلى نقد فى سياستهم، مع تقديره لما قاموا به من جهد فى خدمة الدين والدولة.

نقد طريقة انتقال الخلافة إلى الأمويين:

لم يكن الحسن البصرى مستريحًا لانتقال الخلافة إلى الأمويين بالطريقة التى انتقلت بها إليهم؛ إذ كان يرى أن على بن أبى طالب على الحق فى خلافه مع معاوية، وكان يرجو لو لم يقبل التحكيم، ويقول فى مجالسه: " لم يزل أمير المؤمنين على رحمه الله يتعرف النصر، ويساعده الظفر حتى حكّم، فلم تحكّم والحق معك ؟ ألا تمضى قدمًا . . . وأنت على الحق[3] " . . . ولما طلب معاوية

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٥٩٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ابن أعثم الكوفى: كتاب الفتوح ٧: ١٤٦، ٨: ٩، ١٣. الطبعة الأولى دار الندوة الجديدة، بيروت، بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند، بإشراف الدكتور محمد عبد المعيد خان (د. ت).

(٢) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ١٨١، وابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٣/ ٢٠٣: ٢٠٥، وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة ١ صـ٢٥٧، وابن أعثم الكوفى: كتاب الفتوح جـ٥، ٣٨، وأحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل ٣/ ١٣٢، ١٧٧، ١٧٩، وابن كثير: البداية والنهاية ١٣٥ وراجع د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ٣٤٦ - ٣٥٥.

(٣) المبرد: الكامل مجلد ٣/ ١١٣٨ تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي مؤسسة الرسالة، بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

من على بن أبى طالب أن يمحو اسم الخليفة من وثيقة الصلح والاتفاق على التحكيم نصح الأحنف بن قيس عليًا ألا يفعل، وقال: " لئن محوت هذا الاسم الذى بايعت عليه لا يعود إليك أبدًا"، ولكن الإمام على ا لم يأخذ بمشورة الأحنف، وبرهنت الأحداث والأيام أن ما توقعه الأحنف كان صحيحًا، وعلق الحسن البصرى على هذا الموقف بقوله: " وكان والله كما قال - أى تحقق ما توقعه الأحنف - ثم قال عن كلام الأحنف: "قلما وزن رأيه برأى رجل إلا رجح عليه" [1]. وهذا يعني أن الحسن كان يرجو أيضًا لو عمل الإمام على بنصيحة الأحنف؛ فرفض محو اسم إمارة المؤمنين من اتفاق الصلح.

وهاجم الحسن البصرى قيام الخلافة الأموية على غير الشورى، وهاجم نظام الوراثة الذى أسس له معاوية فى حكم الدولة الإسلامية؛ فكان يقول: أفسد أمر هذه الأمة اثنان: عمرو بن العاص عندما أشار على معاوية برفع المصاحف، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة [2]، وقال عن معاوية: " أربع خصال كنّ فى معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة منهن لكانت موبقة: انتزاؤه عليهذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم؛ وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه من بعده سكّيرًا خمّيرًا، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادًا؛ وقد قال رسول الله ﷺ: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر"، وقتله حجرًا، ويلاً له من حجر، مرتين "[3]

وهذا الكلام من الحسن البصري حملة شديدة على معاوية وبعض جوانب سياسته، فلماذا حمل الحسن البصري على معاوية هذه الحملة ؟ يرى أستاذنا الدكتور محمد ضياء الدين الريس " أن الحسن البصري في حملته على معاوية

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥: ٥٣، وابن الأثير الكامل فى التاريخ ٣: ١٦٢ وانظر الشاطبى: الاعتصام ٣ / ٣٧ المكتبة التجارية. مصر صححه محمد رشيد رضا .

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ٢٤٥ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. وانظر ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٧.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥: ٢٧٩، وانظر ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٣: ٢٤٢.

لا يخلو من نزعة شيعية، ولذا كان متطرفًا في بعض آرائه؛ إذ كان من الموالى، والموالى كانوا متميزين بتشيعهم لعلى وأسرته، وبغضهم للأمويين عامة" (١)

فهل كانت فى الحسن البصري نزعة شيعية بالفعل ؟ وهل هذه النزعة- على فرض وجودها في الحسن - جعلتـه متطرفًا في بعض آرائه ضد الأمويين ؟ وهل كونه من الموالى بغَّض إليه الأمويين عامة ؟

إن المتأمل فى سيـرة الحسن البصري يراه بعيـدًا عن كل ذلك؛ فلو كانت به نزعة شيعية لما قال بإمامة الشـيخين أبى بكر وعمر، ولما تولى عثمان بن عفان؛ بل إنه أخذ بالطرف الآخر من الحـبل ضد الشيعة الذين قالوا إن الإمـامة كانت بالنص على على بن أبي طالب، عندما روي عن علىّ ما يخالف رأي الشيعة، وأنه قال: " لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قدمّ أبا بكر في الصـلاة، فـرضـينا لدنيـانا من رضي به رسـول الله ﷺ لديننا، فقدمنا أبا بكر "(٢)، بل إن الحسن البصري ذهب إلـي أن الخلافة كانت بالنص الخفي على أبي بـكر من رسول الله ﷺ (٣) وقال: " أمـر رسـول الله ﷺ أبا بكر وهو مـريض أن يصلي بالناس، ثم قال: ليُـعلِمَهم والـله من صاحـبهم بعده"(٤)؛ وعندما أرسل إليـه عمر بن عبـدالعزيز يسأل: هل كـان رسول الله ﷺ استـخلف أبا بكر ؟ قال الحـسن للسائل: " أوفي شك صـاحبُك؟ والله الذي لا إله إلا هو لاستـخلفه حين أمـره بالصلاة دون الناس (٥). وكان يرى أبا بكر خيـر الصحابة، ويتـرضي على عمر وعثـمان (٦)، ويترحم على عـثمان، ويلعن قاتليـه، ويقول لو لم نلعنهم للُعِنَّا(٧)، وعقـيدته في علىّ بن أبي طالب

(١) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية صـ٨٣ هامش ٢٢.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١ / ٥٥٨ تحقيق الدكتور محمد حميد الله دار المعارف، الطبعة الثالثة.

(٣) القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة صـ ٧٦١.

(٤) البلاذري: السابق ١/ ٥٦٠.

(٥) السابق صـ٥٦١.

(٦) ابن الجوزي: الحسن البصري صـ ٣٦، ٦٣، وأبو يوسف: كتـاب الخراج ١/ ١٣٥، ١٥٥ ضمن موسـوعة الخراج، بيروت - لبنان ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م .

(٧) المبرد: الكامل مجلد ٣ / ١١٣٨.

كانت عقيدة معتدلة [1] ، وقال: إن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي أصلحوا أمر الأمة [2]؛ وكل هذا ينفي عن الحسن أي نزعة تشيع ويؤكد أيضًا أن كون الحسن أو غيره من الموالي لا يعني بالضرورة وجود نزعة تشيع وبغض للأمويين عامة عنده، و إلى جانب ذلك كان الحسن البصري على صلة قوية بعمر بن عبدالعزيز، ولم يؤثر كونه من الموالي في تقديم النصيحة والرأي لهذا الخليفة الأموي، كما أن الحسن كان يدعو الناس إلي طاعة الأمويين؛ ورفض حركات سياسية قامت ضدهم، ولو كان به أى نزعة تشيع أو عرق لما فعل ذلك؛ وحملته على معاوية وخلافه معه خلاف سياسي، وخلاف تطبيق بعض المبادئ الإسلامية وعدم مخالفتها، حتي لو كانت المخالفة محدودة؛ فما بالنا إذا كان الأمر يتعلق بمبدأ الشوري في الحكم، والتأسيس لمبدأ الوراثة في الدولة الإسلامية، واستلحاق نسب، وقتل رجل عظيم من صحابة رسول الله ﷺ لخلاف في الرأي السياسي؟ ومثل هذه الأمور لم يأخذها الحسن البصري فقط على معاوية وولده يزيد، وإنما أخذها كثير من الصحابة والتابعين في حديثهم عن بعض مظالم بنى أمية. [3]

علي أن أستاذنا الدكتور الريس يقرر في موضع آخر أن الحسن البصري ينتمي من حيث العقيدة إلي مذهب أهل السنة [4]، وهذا يكفي لنفي أي نزعة تشيع عند الحسن البصري.

رفض تبرير الخطأ بالقضاء والقدر :

ظهر الفكر الجبري الذي ينفي حرية الإرادة الإنسانية وشاع في العصر

---

(١) المرتضي: أمالي المرتضي ١/ ١١٢ الطبعة الأولي ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م مطبعة السعادة - مصر، وابن الجوزي: الحسن البصري صـ٣٨.

(٢) ابن الجوزي: الحسن البصري ٣٦، ٣٧.

(٣) انظر ابن سعد: الطبقات الكبري ٥/ ١٨١، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٣٢، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥ ص ٢٥٧، ٢٩١، ٤٨٠، ٤٩٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٤٢.

(٤) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية صـ ٨١.

الأموي، وذكر القاضي عبدالجبار المعتزلي عن شيخه أبي على الجُبَّائي أن ذلك كان لأسباب سياسية؛ فقال " ثم حدث رأي المجبرة من معاوية لما استولي على الأمر، ورآهم لا يأتمرون بأمره؛ فجعل لا يمكنه حجة عليهم، وأوهم أن المنكر لفعله قد ظلمه، فقال: " لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه، ولو كره الله تعالي ما نحن فيه لغيره "(١) وذكر عن معاوية أيضًا أنه قال " يأهل العراق، أتروني قاتلتكم على الصيام والصلاة والزكاة وأنا أعلم أنكم تقومون بذلك ؟ وإنما قاتلتكم على أن أتأمَّر عليكم، وقد أمَّرني الله عليكم "(٢)؛ فمعاوية رأي الكثيرين من الناس غير مقتنعين بطريقة وصوله إلي الخلافة وأحقيته بها، فأراد أن يقنعهم بذلك عن طريق القضاء والقدر، وفشا هذا الفكر في بني أمية، وظهر في أهل الشام، وانتشر في العامة، وعظمت الفتنة فيه. (٣)

وظهر الفكر الجبري أيضًا في العراق، وقال الحجاج بن يوسف في بعض خطبه في البصرة " اسمعوا وأطيعوا لخليفة الله وصفيِّه عبدالملك بن مروان "(٤)، وكانت البصرة مدينة مفتوحة، وأخذ الناس فيها يرتكبون المعاصي، ويقعدون عن الطاعات، ويبررون أعمالهم بالقضاء والقدر، ولم يقبل التابعى الكبير معبدبن خالد الجهني الذي كان يعيش في البصرة هذا التهاون في أمور الدين بهذه الصورة، فرفض الفكر الجبري الذي ينسب معاصي العباد إلي الله وأعلن أنه: " لا قدر، والأمر أنف "(٥)، أي أن الناس يختارون أعمالهم وليست مفروضة عليهم، وكان يهدف إلي إقامة التكاليف الشرعية، والتأكيد على مسئولية الإنسان عن أعماله، وانتشر مذهبه انتشارًا سريعًا، واقتنع به الكثير من الناس (٦). وقد عرض موضوع القدر على الحسن البصري، إذ جاء إليه

---

(١) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة صـ١٤٣ تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر.

(٢) السابق صـ١٤٤ .

(٣) السابق صـ ١٤٤.

(٤) أبو داود: سنن أبي داود مجلد ٢ حـ٤ صـ ٢١٠.

(٥) وقد عرف الذين قالوا بذلك باسم القدرية.

(٦)الشريف المرتضى: إنقاذ البشر من الجبر والقدر. ضمن رسائل العدل والتوحيد. تحقيق الدكتور محمد عمارة ١/ ٢٥٧ والدكتور علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام حـ٢ صـ ٤٧، ٤٤٥ ، طبعة دار المعارف.

معبدالجهني- أول من قال بالقدر- ويسار ابن عطاء - وكان من القائلين به - فسألاه: " يا أبا سعيد إن هؤلاء الملوك - الأمويين - يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله [1]، وروي عنه أنه قال: " إن أقوامًا باتوا وأقلامهم تجري في دماء المسلمين وأموالهم؛ ثم قالوا: إنما جرت أقلامنا على أقلام الله، كذبوا والله، إن أقلام الله لتجري بالبر والتقوي ولا تجري بالإثم والعدوان، أفّاك على الله، جهلة بالله، كَذَبة على الله، زعموا أن الله، تعالي أسر عنده كتابًا نهاهم عنه في العلانية، لقد استغشُّوا ربهم، واتهموه، وقالوا عليه قولاً عظيمًا "[2]

فموضوع القدر أُثيرَ بقوة في هذه الفترة لظروف سياسية "ذلك أن حكام بني أمية كانوا يستغلون فكرة الجبر وحتمية القضاء للإيحاء بأن تصرفاتهم قدر لا محيص عنه" [3]، فالنتيجة للجبر أن الله الذى يسيِّر الأمور قد فرض على الناس بنى أمية؛ كما فرض كل شئ، ودولتهم بقضاء الله والقدر، فيجب الخضوع للقضاء والقدر" [4].

ولدينا رسالة منسوبة إلى الحسن البصرى فى موضوع القدر بعث بها إلى عبدالملك بن مروان الذى أرسل إليه ليعرف حقيقة موقفه من موضوع الجبر والاختيار، ويسأل عن سبب حديثه فى هذا الموضوع الذى لم تتكلم فيه السلف؛ فأجابه الحسن بما يوافق رأى القائلين بالقدر، واستدل بآيات من الكتاب ودلائل من العقل[5]؛ وتكشف هذه الرسالة عن قناعة كبيرة بموضوع اختيار

---

(١) ابن قتنية: المعارف ٤٤١.

(٢) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ١٩٥ تحقيق فؤاد سيد: الدار التونسية للنشر.

(٣) د.عبد الرحمن سالم: التاريخ السياسي للمعتزلة صـ٢٦.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام ٣/ ٨١.

(٥) الحسن البصرى: رسالة في القدر ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة صـ١١١ - ١١٧. وانظر الشهرستانى: الملل والنحل على هامش كتاب ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية خمسة أجزاء فى مجلد جـ١ صـ٥٤، ٥٥ (د.ت).

الإنسان لأعماله، وأبان الحسن البصرى فيها أن الذى جعله يتكلم فى هذا الموضوع هو شيوع الفكر الجبرى بين الناس، وقال: إن السلف لم يظهروا هذا القول - أى لم يتكلموا في القدر-؛ لعدم ظهور القول بالجبر، ولأنهم كانوا على أمر واحد متفقين، ولم يأمروا بشئ منكر[1]؛ أى أنهم كانوا متفقين على اختيار الإنسان لأعماله ومسئوليته عنها، ويقول الدكتور عمارة " أى أن القدر (الاختيار) كان رأيهم بوجه عام "[2].

وقد وضع المعتزلة الذين يقولون باختيار الإنسان لأفعاله الحسن البصرى فى الطبقة الثالثة من طبقات أعلامهم، واستشهدوا بتلك الرسالة التى رويت عنه إلى عبدالملك بن مروان ، وأورد ابن سعد مجموعة من الروايات عن بعض تلاميذ الحسن توضح أن الحسن كان يقول بالقدر[3] أي: باختيار الإنسان لأفعاله ومسئوليته عنها وكثير من علماء السنة ينفى عن الحسن أنه قال بالقدر [4]، فيقول الشهرستانى: " ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصرى كتبها إلى عبدالملك بن مروان، وقد سأله عن القول بالقدر والجبر فأجابه بما يوافق رأى القدرية، واستدل فيها بآيات من الكتاب ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء " [5]، ومن الممكن أن يكتب واصل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة الذي من أصوله القول بالقدر (الاختيار) مثل هذه الرسالة، ولكن نسبة هذه الرسالة - وكما لاحظ بعض الدارسين - إلى واصل ابن عطاء لا يستقيم؛ لأن واصلاً ولد سنة ٨٠هـ، وعبدالملك بن مروان توفى سنة ٨٦ هـ؛ فكم كانت سن واصل

---

(١) الحسن البصرى، رسالة فى القدر، ضمن رسائل العدل والتوحيد تحقيق الدكتور محمد عمارة صـ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٧، وانظر الدكتور محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) الدكتور محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد، فى تحقيقه لرسالة الحسن البصرى "رسالة فى القدر" صـ١١٣ هامش١ .

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٧/ ١٦٧.

(٤) انظر عبد القاهر البغدادى: الفرق بين الفرق ٢٢٠، والشهرستانى: الملل والنحل بهامش كتاب ابن حزم الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١/ ٥٤.

(٥) الشهرستانى: الملل والنحل بهامش كتاب ابن حزم الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١/ ٥٤.

حين كتبت هذه الرسالة ؟ ست سنوات. لا يستطيع من كان في هذه السن أن يفعل ذلك. [1]

وبعض الروايات تصور أن الحسن قال بالقدر ثم رجع عنه خوفًا من سلطان بني أمية الذين كانوا يروجون لعقيدة الجبر؛ فقد أورد ابن سعد أن أيوب السختياتى - أحد تلاميذ الحسن - قال: " أنا نازلت الحسن فى القدر (الاختيار) غير مرة حتى خوفته السلطان، فقال: لا أعود فيه بعد اليوم" [2]، ولكن الحسن ليس تلك الشخصية التى تترك القول بما تعتقد فيه في مثل هذه القضية الكبيرة خوفًا من السلطان.

ولعل الذين قالوا بنفى القول بالقدر عن الحسن البصرى؛ أو برجوعه عنه، نظروا إلى ما وقع فيه القدرية بعد ذلك من مبالغة فى " إثبات القدرة للعبد فى إثبات الخلق والإيجاد، وأنه لا يحتاج فى ذلك إلى معاونة من جهة الله تعالى" [3]، وقد أشار الأستاذ حسن السندوبى إلى مثل هذا فقال عن الشهرستانى الذى نفى أن يكون الحسن قد قال بالقدر، ونسب الرسالة المنسوبة إليه فى القدر إلى واصل بن عطاء خطأ، قال: "ولعل من حسن الاعتذار للشهرستانى عن هذه العثرة أنه كان ينظر إلى القول بالقدر بعين زمانه الذى كان للحشوية فيه سلطان واسع النفوذ على العقول والأفكار حتى أفسدوا العقائد، وتقولوا على الماضين ما لا علم لهم به" [4]، في حين أن القول بالقدر في أيام الحسن كان أبسط من ذلك إلى حد كبير، ويوضح لنا الشريف المرتضى الظروف التى ظهر فيها الكلام وشاع حول موضوع القدر في أيام الحسن بقوله: "اعلم أن أول حالة ظهر فيها الكلام وشاع بين الناس فى هذه الشريعة هو أن جماعة ظهر منهم القول بإضافة معاصى العباد إلى الله سبحانه، وكان الحسن بن أبى

---

(١) راجع الأستاذ حسن السندوبى فى مقدمته لكتاب الحسن البصرى لابن الجوزى صـ١٠ والدكتور عبد الرحمن سالم: التاريخ السياسى للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجرى صـ٢٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٧ صـ١٦٧، وانظر ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ١/ ١٣٧.

(٣) المقريزى: الخطط جـ٣، ٢٩٠.

(٤) حسن السندوبى: مقدمة لكتاب ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ١١.

الحسن البصرى ممن نفى ذلك، ووافقه فى زمانه جماعة وخلق كثير من العلماء، كلهم ينكرون أن تكون معاصى العباد من الله، منهم معبدالجهنى وأبو الأسود الدؤلى ومطرف بن عبدالله ووهب بن منبه وقتادة وعمرو بن دينار ومكحول الشامى وغيلان وجماعة كثيرة لا تحصى، ولم يك ما وقع مانع من الخلاف حينئذ يتجاوز باب إضافة معاصى العباد إلى الله - سبحانه عن ذلك - ونفيها عنه، . . . فأما الكلام فى خلق أفاعيل العباد وفى الاستطاعة وفيما اتصل بذلك وشاكله فإنما حدث بعد دهر طويل . . . "[1]؛ فالحسن البصري لم يتجاوز القول باختيار الإنسان لأعماله ومسئوليته عنها، ورفض نسبة معاصي العباد إلى الله؛ حماية للمجتمع من الرذيلة، ووقفًا في وجه الحكام الذين أرادوا أن يتخذوا من القول بالجبر تكأة لتبرير أعمالهم الظالمة؛ ولذا رأيناه في الجانب العملي من مواقفه السياسية ينتقد الخلفاء والأمراء، ويحملهم مسئولية أعمالهم، وكان يرفض أن يكون للخلفاء والولاة عذر في معصية الله بحجة أنه قضاء وقدر، أو بحجة أن الوالي ينفذ أوامر الخليفة الذى له عليه حق الطاعة، فقال لابن هبيرة عندما سأله عن ذلك " حق الرعية لازم لك، وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإنى سمعت عبدالرحمن بن سمرة القرشى صاحب رسول الله ﷺ يقول: " قال رسول ﷺ " : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة؛ حرم الله عليه الجنة " [2].

إنكار التشدد والعنف مع الرعية:

كانت منطقة العراق فى العصر الأموى مركزًا للفتن والثورات مثل ثورات: المختار بن أبى عبيد الثقفى، والشيعة والزبيريين والخوارج وابن الأشعث، ويزيد ابن المهلب ضد بنى أمية؛ ولذلك رأينا الأمويين يهتمون بإسناد الولايات فى هذه المنطقة إلى ولاة أقوياء، وكان من أبرز الولاة الذين شهدتهم منطقة البصرة

---

(١) الشريف المرتضى: إنقاذ البشر من الجبر والقدر، ضمن رسائل العدل والتوحيد، تحقيق د. محمد عمارة ١/ ٢٥٧.

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٧٥، ٣٧٦.

- حيث يقيم الحسن البصرى - زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف الثقفى، ولكن هؤلاء الولاة تجاوزوا الحد في الشدة فى حكمهم، والعنف فى مؤاخذة المخالفين لهم، وأخذوا الناس بذنوب بعضهم البعض؛ فقد قال زياد عند تولى البصرة سنة ٤٥ هـ فى خطبته: " وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم "(١)، وقال الحجاج فى بعض خطبة بالبصرة: " والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلّت لى دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالاً" (٢)، وتتبعوا الشيعة والخوارج بالقتل، ووقعت المثلة ببعض المخالفين (٣). وقد نقم أهل العراق هذه السياسة الشديدة على الأمويين وولاتهم (٤)، وانتقدها الحسن البصرى بقوة، وقيل: إن الحسن بن على بلغه أن زيادًا يتتبع الشيعة في البصرة فيقتلهم فدعا عليه(٥)؛ و أخذ الحسن البصري على زياد تعدّيه فى العقوبة، وقال عنه: " ما كان أجرأه على الله. سمعته يقول: لآخذن الجار بالجار. والله يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (٦)

وعاب على ابن زياد جرأته على سفك الدماء، وأنه لم يكن يستجيب للنصيحة من أهل الفضل، فقال: " أقبل على نا عبيد الله بن زياد، أمَّره معاوية، غلامًا سفيهًا سفك الدماء سفكًا شديدًا، فدخل عليه الصحابى عبدالله ابن مغفل، فقال: انته، عما أراك تصنع، فإن شر الرِّعاء الحطمة، قال: وما أنت وذاك ؟ إنما أنت من حثالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كان فيهم

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/٢١٩.

(٢) أبو داود: سنن أبى داود مجلد ٢ جـ٤ صـ٢١٠.

(٣) انظر ابن الأثير الكامل في التاريخ ٣/ ٢٥٥.

(٤) المرتضى: أمالى المرتضى ٣/ ١٠٥ وابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ٧٩.

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٩٦ تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي، ومامون الصاغرجى ط١١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٦) البلاذرى: أنساب الأشراف ٤: ١: ١٧٥ . والآية من سورة الإسراء رقم ١٥ .

حثالة لا أم لك" [1]. وندد الحسن بسوء سيرة ابن زياد وظلمه واستبداده، ورماه بالعمى والضلال، ورمى من حوله بأنهم بطانة سوء، أعوان على الظلم، فقد جاء رجل ضرير البصر يسأل عن مجلس الحسن وقال: " تصدقوا على من لا قائد له يقوده ولا بصر يهديه، فقال الحسن: ذاك صاحب هذه الدار؛ يعنى عبيدالله بن زياد، ما كان له من حشمه قائد يقوده إلى خير، ولا يشير به عليه، ولا كان له بصر يبصر به فينفعه" [2]، وقال: " ما رأينا شرًا من ابن زياد" [3].

ورمى الحجاج بن يوسف بأنه يحكم فى الأموال والدماء بحكم الجاهلية، ورآه متناقضًا فى أقواله وأفعاله، يتلو كتاب الله، ويعظ وعظ الأبرار، ويطعم الطعام، ويؤثر الصدق، ويبطش بطش الجبارين "[4] ولما قتل الحجاج سعيد بن جبير رحمه الله، -وأصابه المرض عقب ذلك- ذهب الحسن لزيارته؛ فشكا إليه الحجاج ما كان يجد، فقال له الحسن: " قد كنت نهيتك ألا تتعرض للصالحين فلججت" [5]، وقال معقبًا على سياسة زياد والحجاج المتشددة وما ألحقته من ضرر بالناس: "تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس" [6].

وإدانة هذه السياسة المتشددة من قبل هؤلاء الولاة كانت إدانة أيضًا لمن استخدمهم من الخلفاء، فكان زياد وابنه عبيد الله بن زياد يعتبران من سيئات معاوية، وكان الحسن البصرى يعتبر الحجاج سيئة من سيئات عبدالملك بن مروان[7].

الاعتراض على ترف الولاة:

انتقد الحسن البصري الحياة الخاصة للولاة الأمويين وما كان فيها من ترف

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٤٥.

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف ٤: ٢/ ٨٠، ٨١.

(٣) السابق ٤: ٢ / ٨٣.

(٤) ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٥٨.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥٣.

(٦) الجاحظ: البخلاء ١/ ١٣٤.

(٧) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ١/ ٢١٢.

وتبذير وبعد عن سيرة رسول الله ﷺ والراشدين من بعده؛ فعاب على ابن زياد كثرة الطعام والشراب، وقال إنه: " يتكى على شماله ويأكل بيمنه، حتى إذا غلبت على الكظة قال: ابغونى حاطومًا (مهضمًا) ثكلتك أمك إنما تحطم دينك " [1]، ولما بنى الحجاج بن يوسف دارًا بواسط ودعا إليها الناس - وفيهم الحسن- لرؤيتها، لم يترك الحسن هذه المناسبة دون أن يهوّن من شأن الدنيا، ويرمى الحجاج بالغفلة عن أمر الآخرة، فقال: "الحمد لله ، إن الملوك يرون لأنفسهم عزًا، وإنا لنرى فيهم كل يومه عبرًا، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب حسنة فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع، وفراش نار، وأصحاب سوء، فيقول انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك . . . ثم خرج وهو يقول: إن الله أخذ عهده على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه "[2].

إن الحسن البصرى كان يفهم جيدًا أن الله أحل الزينة التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ولكنه - وهو العالم الزاهد - كان يريد من الحكام أن يتأسوا برسول الله ﷺ والراشدين في حياتهم الخاصة[3] حتى يكونوا ولاة خير وأئمة رشد للناس؛ فقد روى عن الإمام على رضي الله عنه أنه قال: " إن الله قد أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغنى، ولا يزرى بالفقير فقره " .

موقفه من سياسة الأمويين المالية :

كانت هناك بعض المخالفات فى العصر الأموي للتنظيم المالي فى الإسلام، فقد روى الجاحظ أن الحسن البصري قال: : إن زيادًا بعث الحكم بن عمرو على خراسان، فأصاب منها، فكتب إليه زياد: " إن أمير المؤمنين كتب إلىّ يأمرنى

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف ٤: ٢ / ٨٦.

(٢) انظر المرتضى: أمالى المرتضى ١/ ١١١، ١١٢، وابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٥٣.

(٣) انظر ابن الجوزى: الحسن البصرى ٥٠، ٥١.

أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تقسمه، واقسم ما سوى ذلك؛ فكتب إليه الحكم بن عمرو: " إنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين. ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبدفاتقى الله لجعل الله له منها مخرجًا، والسلام "؛ ثم أمر المنادى فنادى فى الناس أن اغدوا على غنائمكم فغدوا فقسمها بينهم " (١).

وذكر بعض المؤرخين أن الحجاج بن يوسف الثقفى أخذ الجزية ممن دخل فى الإسلام من الموالى (٢)، وكانت هناك بعض المخالفات فى توزيع العطاء (٣)، وأموال أخذت للأمويين بغير حقها، وشرع عمر بن عبدالعزيز فى ردها، وسمىَّ ذلك مظالم(٤)، وحتى فى جمع الزكاة كانت تقع مخالفات من قبل بعض العمال الذين يقومون على جبايتها لمصالحهم الخاصة (٥)، وقد انتقد الحسن البصري مثل هذه المخالفات، فقال عن الحجاج إنه يحكم فى الأموال والدماء بغير ما أنزل الله، وقال عن الأمويين: قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم(٦)، وكان حريصًا عن أن تبتعد الدولة عن أى مخالفة مالية، لذلك نراه فى مراسلاته مع عمر بن العزيز يؤكد على ضرورة أخذ المال من مصادره الشرعية، وإنفاقه فى مواضعه المشروعة(٧).

---

(١) الجاحظ البيان والتبين ٢/ ٢٩٦، ٢٩٧ وذكر ذلك الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٢٥١، ٢٥٢، وابن الأثير: السابق ٣/ ٢٣٣.

(٢) ابن الأثير: السابق ٤/ ٧٩، والنويرى نهاية الأرب ٢١: ٢٣٧، وانظر نبيه عاقل: تاريخ خلافة بنى أمية صـ١٧٩ الطبعة ٣ دار الفكر - بيروت ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥م.

(٣) الطبرى: السابق ٦/ ٣٤٧، وابن الجوزى: سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١٠٦، وابن الأثير: السابق صـ٧٩، وانظر: قطب إبراهيم محمد: السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ صـ١٨٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ١٦٤.

(٥) النويرى: نهاية الأرب ٢١/ ٣٣٤.

(٦) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٧٥.

(٧) البيهقي: سنن البيهقي ٨/ ٢٤٨.

رفض سب الإمام على:

نهى رسول الله ﷺ عن سب الصحابة الكرام فقال: " لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه "[1]، وكان الأمويون يسبّون على بن أبى طالب، وينالون منه فوق المنابر[2]؛ أملاً فى أن يؤدى ذلك إلى تقوية نفوذهم السياسى، وقد قيل أيضًا إن من الأسباب التى جعلت الأمويين يفعلون ذلك أن الشيعة كانوا يسبون معاوية والأمويين[3] ولكن لابد أن نلاحظ أن سب أتباع على للأمويين كان في بعض الأحوال رد فعل للسياسة الأموية نحو الإمام على [4]، وعلى فرض أن بعض الشيعة كانوا يسبون الأمويين، فهل هذا يبرر أن تتخذ الدولة الأموية من سب الإمام على على المنابر سياسة رسمية لها حتى أبطل ذلك عمر بن عبدالعزيز؟

وقد أراد الحجاج بن يوسف أن يستدرج الحسن البصرى إلى المشاركة فى هذا الطعن لدعم سياسة الأمويين في هذا الشأن؛ فكان الحسن يرفض ذلك وينكره، ويحسن التخلص حينًا، ويقول رأيه بصراحة حينًا آخر؛ فقد سأله الحجاج مرة عن على وعثمان، فقال: " أقول قول من هو خير منى عند من هو شر منك، قال فرعون لموسى: ﴿ فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾ [5]؛ علم على وعثمان عند الله، فأُعجِب الحجاج بردّه وصرفه [6].

ودعا الحجاج يومًا فقهاء الكوفة والبصرة فدخلوا عليه، وأدنى الحسن البصرى منه، وأجلسه على كرسى إلى جانب سريره، وأخذوا يتدارسون بعض أمور العلم والسير، وجاء ذكر على بن أبى طالب؛ فنال منه الحجاج، وتبعه فى

---

(١) أبو داود: سنن أبى داود كتاب السنة مجلد ٢ جـ٤/ ٢١٤.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٥/ ٢٥٤، والذهبى: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩.

(٣) حمدى شاهين: تاريخ الأمويين بين التحريف والإنصاف صـ٤١٤-٤١٥

(٤) انظر الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٥/ ٢٥٤.

(٥) سورة طه: الآيتان ٥١، ٥٢

(٦) المرتضى: أمالى المرتضى ١/ ١١٢.

ذلك جماعة من الجالسين مقاربة للحجاج، والحسن البصرى ساكت عاضّ على إبهامه - أى أنه لم يكن راضيًا على النيل من على - ولعله كان يتأهب للرد والدفاع عن الإمام، فاتجه إليه الحجاج بالحديث سائلاً عن صمته، فقال: ما عسيت أن أقول ؟ قال أخبرنى برأيك فى أبى تراب ؟ فأخذ الحسن فى صراحة وجرأة يذكر بعض مناقب الإمام على؛ فقال سمعت الله جل ذكره يقول: ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾[1]؛ فعلى ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول ابن عم النبى عليه السلام، وختَنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كانت لعلىّ هنات فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً، أعدل من هذا " . فتغير وجه الحجاج وقام فدخل بيتًا خلفه [2].

إن هذا الكلام من الحسن البصرى يعنى من الناحية السياسية رفضًا قويًا لوقوع الأمويين فى حق الإمام على فى خلافتهم التى قامت على مخالفته ومحاربته مع مكانته وسوابقه.

تقييم الحسن للخلافة الأموية:

وليس معنى هذا النقد السابق والمآخذ من جانب الحسن البصرى للأمويين أنه كان يغمطهم حقهم، وإنما كان يعرف لدولتهم قدرها، ولحكامها ما يبذلون من جهد فى سبيل المحافظة على الدين والدولة، وكان يدعو الناس إلى طاعتهم، وقدم تقييمًا موجزًا عن الأمويين وخلافتهم عندما جاء إليه رجل من أهل البحرين، وقال له: يا أبا سعيد: إنى أريد أن أسألك عن الولاة، فقال الحسن: سل ما بدا لك. فقال ما تقول فى أئمتنا هؤلاء؟ فسكت الحسن مليًا، ثم قال: وما عسى أن أقول فيهم وهم يلون من أمورنا خمسًا: الجمعة والجماعة

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) الغزالى: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٧٤.

والفئ والثغور والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، والله إن طاعتهم لغبطة، وإن فرقتهم لكفر، فقال الرجل: يا أبا سعيد والله إنى لذو مال كثير، وما يسرنى أن يكون لى أمثاله وأنى لم أسمع منك الذى سمعت، فجزاك الله عن الدين وأهله خيرا[1] "، فالحسن البصرى فى هذا التقرير الموجز يبين أن الأمويين قاموا بأمور ولايتهم الدينية " الجمعة والجماعة والفئ والثغور والحدود"، أى أنهم اهتموا بإقامة الدين من أمور العبادات، والمحافظة على وحدة الجماعة، والاهتمام بأمر المال والاقتصاد، والقيام بأمر الجهاد والفتوحات، وحماية الدولة، وتنفيذ الأحكام الشرعية، وهذه الأمور هى المعانى المقصودة من الخلافة والتى عرفها الماوردى بقوله: " الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا " [2]

ولكن الحسن البصرى يقول فى تقريره عن خلافة بنى أمية: إن قيامهم بهذه الواجبات الدينية كان مشوبًا بالظلم، وذلك فى قوله: " وإن جاروا وإن ظلموا"، وهذا ما انتقدهم فيه كما ظهر لنا فيما سبق، ويرجح جانب الخير والصلاح؛ فيقول: " والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون "، ويدعو الناس إلى طاعتهم.

ومعنى هذا أن الحسن البصرى كان يرى صحة خلافة الأمويين إلا أنه يراها ناقصة، لا ترقى إلى خلافة الراشدين التى كان يرى أنها صلاح لم يَشُبْه ظلم [3]، ولذلك رأيناه يستخدم كلمة الملوك فى بعض المواقف فى الحديث عن

---

(١) ابن الجوزى: الحسن البصرى ٥٨.

(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية صـ٥ طبع دار الكتب العلمية بيروت.
- وجعل الماوردى واجبات الإمامة فى عشرة أمور هى: حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام، وحماية البيضة، وإقامة الحدود، وتحصين الثغور، والجهاد وجباية الفئ والصدقات، وتقدير العطايا وما يستحق من بيت المال، واستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء، ومباشرة أمور الإمامة، راجع تفاصيل هذه الواجبات: الماوردى: الأحكام السلطانية صـ١٨.

(٣) ابن الجوزى: الحسن البصرى ٣٦، ٣٧.

خلفاء بنى أمية وولاتهم [1]، واعتمادًا على حديث: " الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك " [2]. ويتفق مع الحسن فى رأيه عن خلافة بنى أمية الكثير من العلماء والفقهاء " [3]، ومنهم الإمام التفتازانى فى شرحه للعقائد النسفية حيث قال فى تفسيره حديث: " الإمامة بعدى ثلاثون سنة ثم بعدها ملك وإمارة " قال: " ولعل المراد الخلافة الكاملة التى لا يشوبها شئ من المخالفة، وميل عن المتابعة " [4]، وابن خلدون الذى قال فى حديثه عن تطور أمور المسلمين وما آل إليه الأمر فى العصر الأموى: " انقلبت الخلافة إلى الملك " [5] وأن الوازع الذى كان دينًا " انقلب عصبية وسيفًا " [6] ويرى ابن خلدون أن هذا الملك كان ملكًا وجهته مقاصد الحق، " إلا فى ضرورة تحملهم على نقضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو أهم لديهم من كل مقصد "، ولكن الخروج على مقاصد الحق فى خلافتهم عند الحسن البصرى لم يكن لمجرد الضرورة، وإنما كان ظلمًا كما جاء في تقريره " وإن جاروا وإن ظلموا "، وينبغي أن نضع في اعتبارنا - ونحن نتكلم عن الدور السياسي للحسن البصري - أنه من علماء الدين الزاهدين فى الدنيا [7]، وكان قد تمثل عصر الراشدين وخلافتهم، وظل هذا المثال أمام عينيه، حتى كان يشبه بالصحابة عامة، وبعمر بن الخطاب فى آرائه خاصة، ولذلك فهو فى نقده الأمويين كان يقيس خلافتهم بمقياس عصر الصحابة ويريد منهم احتذاء سيرتهم، فجاء نقده للأمويين وسياستهم وطريقة حياتهم نقدًا شديدًا، مع تقديره لجهودهم

---

(١) ابن الجوزى: الحسن البصرى: صـ٥٨.

(٢) الترمذى: سنن الترمذى مجلد ٣ صـ٣٤١ باب ما جاء فى الخلافة، وقال: هذا حديث حسن. وانظر أبو داود: سنن أبى داود مجلد ٢ جـ٤ صـ٢١١.

(٣) ابن قتيبة، المعارف ٤٤١، وأبو داود: السابق مجلد ٢ جـ٤ صـ٢١٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٣/ ٢٠٥، وابن خلدون تاريخ ابن خلدون المسمى: بالعبر وديوان المبتدأ والخبر مجلد ١/ ١٧٣ طبع بيروت.

(٤) التفتازانى: شرح العقائد النسفية صـ١٤٣، والدكتور محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية صـ١٩٦.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون مجلدا صـ١٧٣ طبع بيروت لبنان ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

(٦) السابق صـ١٧٤.

(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء المجلد الثاني صـ١٣٢ مطبعة السعادة: مصر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الذهبي: تاريخ الإسلام ٧/ ٦١، ٦٢.

والاعتراف بصحة خلافتهم؛ وذلك ليبقى عصر الراشدين وصورته المثالية حاضراً فى الأذهان، وأمام عيون الناس والخلفاء والأمـراء؛ ليرجعوا إلى الاقتداء به عند وجود الظروف المواتية، وعند زوال الأسباب التى أدت إلى البعد عنه.

* * * *

المبحث الثالث

موقف الحسن من الخارجين على الأمويين

شهـد العصر الأموى مـجموعة من الحـركات والثورات المناهضة للخـلافة الأموية، مثل حركات الخوارج وثورة الحسين بن على وثورة أهل المدينة، وحركة ابن الزبير، وثورات الشيعة، وثورة ابن الأشعث، وثورة يزيد بن المهلب، ونريد فى هذا المبحث أن نتعرف على موقف الحسن البصرى من هذه الحركات.

الحسن البصرى والخوارج:

الخوراج هم الذين خرجوا على على بن أبـى طالب رضي الله عنه؛ لقبوله التحكيم فى معركـة صفين[1]، واشتط فكرهـم؛ فاستـعرضوا الناس وكـفّروا أصـحاب الكبائر، وقتلوا مَن خالفهم[2]، وقد حاربهم الإمام على رضي الله عنه فى بعض المواقع وأنزل بهم هزيمة ساحقة كـادت تقضى عليهم فى النهروان[3]، وقد عرفوا باسم المحكِّمة والشُّراة والحَرورية[4]، وافترقوا خلال العصر الأموى فرقًا كثيرة يجمعها " إكفار على وعثمان وأصـحاب الجمل والحكمين ومن رضى بالتحكيم وصوب الحكمين أو أحدهمـا، ووجوب الخروج على السلطان الجائر"، وأكـثرهم على تكفـيـر مـرتكبى الذنوب[5]. وبناء على هذه الأفكـار رفض الخوارج خـلافـة

---

(١) البغدادى: الفرق بين الفرق صـ٤٦.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٨٥.

(٣) السابق صـ٨٦، ٨٧، والبغدادى: الفرق بين الفرق صـ٤٨.

(٤) البغدادى: السابق صـ٤٦.

(٥) السـابق صـ٤٥، انظر البغـدادى: أصـول الدين ٢٩١، ٢٩٢ الطبعـة الأولى: استـانبـول - مطبعـة الدولة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

الأمويين، فهم من وجهة نظر الخوارج كفار، مرتكبون لكبائر، مغتصبون للخلافة، وسلطانهم جائر؛ فلابد من قتالهم، وحوّل الخوارج هذه الأفكار إلى سياسة عملية جعلت تاريخهم خلال العصر الأموى يتميز بالحروب المستمرة.

تحرك الخوارج فى العراق ضد الأمويين فى خلافة معاوية[١]، وحاربهم زياد ابن أبيه الذى تولى أمر البصرة سنة ٤٥هـ، واشتد عليهم ابنه عبيد الله بن زياد، وقتل منهم عدداً كبيراً[٢]، وازداد خطر الخوارج فى العراق فى عهد عبدالملك بن مروان؛ بسبب قوة الأزارقة الخوارج، ودارت بينهم وبين الأمويين معارك كثيرة[٣]، فماذا كان موقف الحسن البصرى من جماعة الخوارج ؟

لقد كان الحسن البصرى يتفق مع رأى الخوارج فى أن الإمام علياً أخطأ عندما قبل التحكيم[٤]، ويتفق معهم فى أن معاوية أخطأ فى حق الأمة عندما أخذ الخلافة بالطريقة التى وصل بها إليها، ولكن هذا الخطأ عند الحسن البصرى لا يتعلق بالكفر والإيمان كما ذهبت الخوارج إلى ذلك؛ فكفرت علياً رضي الله عنه ومعاوية وغيرهما من الصحابة.

رفض الحسن البصرى مبادئ الخوارج فى تكفير أحد من الصحابة أو أصحاب الذنوب، فى مجالسه العامة والخاصة، وبالتالي رفض ما رتبوه عليهذه المبادئ من نتائج سياسية وخروج على الدولة؛ فكان يترضّى على عثمان، ويترحم عليه، ويلعن قاتليه[٥]، ويعتبر علياً سهماً من مرامى الله[٦]، ويرى أن كليهما أصلح فى أمر الأمة، وبايع الحسن الأمويين ودعا الناس إلى طاعتهم، والصبر على إيذائهم، ولو كان يرى بهم كفراً لما فعل ذلك، وكان يعلن أن مرتكب الكبيرة ليس كافراً وإنما هو فاسق لا ينتفى عنه الإيمان، ولما قال واصل

---

(١) انظر الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٧٢، ١٧٦، والبغدادى: الفرق بين الفرق صـ٤٩.

(٢) الطبرى: السابق ٥/ ٣١٢، والبغدادى: السابق ٤٩، ٥٠.

(٣) البغدادى: السابق صـ٥١، ٥٢.

(٤) المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٨

(٥) إحسان عباس: الحسن البصري ٢٥.

(٦) المرتضى: أمالى المرتضى: ١/ ١١٢.

ابن عطاء - وكان من تلاميذ الحسن - إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا رفض الحسن ذلك منه، واعتزله واصل[1]، وهذا يعنى أن الحسن البصرى رفض ما كان يفعله الخوارج من التعرض لعامة الناس من مخالفيهم بالقتل والإيذاء، فكان يقول معبرًا عن هذا الاعتراض عليهم: " ويلك تقتل وليَّه وترجو رحمته "؟!

وكان الحسن يرى أن الناس فى فتنة، والأمر يحتاج إلى روية وصبر، وأن معالم الحق خافية على الخوارج، ويخطِّئهم فى الاندفاع إلى الحرب دون روية، ويدعوهم إلى استبصار الطريق أمامهم، ولدينا محاورة بينه وبين أبى بلال مرداس بن أديَّة التميمي - أحد زعماء الخوارج الكبار فى العصر الأموي - وكان رجلاً عابدًا معتدلاً[2]، وكان أبو بلال قد عزم على الخروج على عبيد الله ابن زياد والى الأمويين فى البصرة، والحسن يدعوه إلى طاعة الأمويين وعدم التمرد على سلطانهم والصبر على إيذاء ابن زياد، وقال له [3]: " أخبرنى عن رجلين خرجا فى أمر فغشيتهما ظلمة، فوقف أحدهما حتى انجلت الظلمة فمضى، وتقحم الآخر الظلمة فمضى أيهما أصوب رأيًا "[4]، وأدرك أبو بلال أن الحسن يخطئه فى عزمه على الخروج على ابن زياد ويدعوه ألا يفعل؛ فقال رافضًا دعوة الحسن: " أصوبها عندى أخطأهما عندك "[5]. وهذا موقف واضح في رفض الحسن لمواقف الخوارج في السياسة.

وكانت الإباضية من الخوارج ينسبون أنفسهم إلى العالم الجليل جابر بن زيد بالبصرة[6]؛ مما يعطى لهم سندًا فكريًّا وسياسيًّا، وجابر يبرأ منهم ومن أعمال

---

(١) ابن الجوزي: الحسن البصري ٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ صـ٢٥٥.

(٣) البغدادى: أصول الدين ٣٣٥، والفرق بين الفرق صـ١٨ وعلماء السنة يقولون: " إن الشهادة بدعة والبراءة بدعة " ويقصدون بذلك أن الشهادة على معين من المسلمين أنه من أهل النار أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به " الطحاوى: شرح العقيدة الطحاوية ٦٩٧.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ٤ / ١٥٧، ١٥٨، المبرد: الكامل ٢٤٩.

(٥) البلاذري: السابق ٤ / ١٥٨ .

(٦) ابن حجر: تهذيب التهذيب جـ٢/ ٢٦٤.

الخوارج، وأفكارهم المتطرفة، وكان جابر صديقًا حميمًا للحسن البصرى، فذهب الحسن لزيارته فى مرض وفاته وقال له: " إن الإباضية تتولاك " فقال جابر: أبرأ إلى الله منهم "، فقال له الحسن: فما تقول فى أهل النهر ؟ فقال: " أبرأ إلى الله منهم "[1]، ولقد أراد الحسن بذلك أن يدين الخوارج، ويظهر براءة جابر بن زيد من أفكارهم المتطرفة ومواقفهم السياسية التى رتبوها على تلك الأفكار؛ مما يضعف جانبهم، وظل الحسن طوال حياته في العصر الأموى يدين الخوارج وآراءهم، وقد كان له رواد كثيرون فى مسجد البصرة يأخذون عنه العلم والرأى، وله شعبية كبيرة فى البصرة تعمل بآرائه وتحتج بها، وينتشر علمه ورأيه فى الآفاق لشهرته العظيمة، وهذا يعنى أنه كان حربًا على الخوارج، فأبغضوه حتى قيل: " لا يبغض الحسن إلا حرورى ".[2]

ثورة الحسين وأهل المدينة وابن الزبير :

عندما توفى معاوية بن أبى سفيان سنة ٦٠هـ وتولى ابنه يزيد امتنع الحسين ابن على رضي الله عنه أن يبايع له[3]، ودعا إلى نفسه، وراسله أهل الكوفة، ودعوه إليهم[4]، وراسل أهل البصرة[5]، ولحق بمكة المكرمة ومنها اتجه إلى الكوفة فى التاسع من ذى الحجة سنة ٦٠هـ[6]، ولكن الأمويين اعترضوا الحسين وقاتلوه، واستشهد فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ[7]، وثار أهل المدينة على يزيد سنة ٦٣هـ[8]، وخرج ابن الزبير فى مكة ودعا لنفسه بالخلافة سنة

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٨٢.

(٢) السابق ١٧٤ والحرورية نسبة إلى حروراء المكان الذى تجمع فيه الخوارج بعد رجوع الإمام على من صفين إلى الكوفة؛ ولذلك سميت الخوارج حرورية (عبد القاهر البغدادى: الفرق بين الفرق صـ٤٦.)

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٩، ٣٤٢، والمسعودى: مروج الذهب جـ٣ صـ٦٤.

(٤) الطبرى: السابق ٥/ ٣٥٢، والمسعودى: مروج الذهب ٣/ ٦٤.

(٥) الطبرى: السابق ٥/ ٣٥٧.

(٦) المسعودى: مروج الذهب ٣/ ٦٤، ٧٠.

(٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٤٠٠، و المسعودى: مروج الذهب ٣/ ٧٠.

(٨) الطبرى: السابق ٥/ ٤٨٠ - ٤٨٢، و المسعودى: السابق جـ٣ صـ٧٨.

٦٣هـ[١]، وازداد شأن الزبير وصار له نفوذ فى الحجاز والعراق ومصر[٢]، وقضى الأمويون على ثورة أهل المدينة وحركة ابن الزبير.

وكان الداعى إلى هذه الثورات ضد يزيد أنه كان متهمًا بالفسق، ويراه أصحاب هذه الثورات ليس أهلاً للقيام بأمر الخلافة[٣]، إلى جانب أن القائمين بهذه الثورات لم يكن من السهل عليهم أن يخضعوا لما رتب له معاوية من استخلاف ابنه من بعده وتحويل أمر الخلافة إلى ملكية وراثية، وقد كان كل من الحسين بن على وعبدالله الزبير أهلاً للقيام بأمر الخلافة، وكانا وأهل المدينة مجتهدين على حق فى الخروج على يزيد الذي كان متهمًا على الأقل بالفسق، وفي الأمة من هو مشهود له بالعدالة، ولكن الشوكة والقوة كانت مع بنى أمية حينئذ[٤]؛ ولذلك كان البعض من الصحابة يأبى الخروج لا عن رضا بيزيد وخلافته وأعماله، وإنما لما فيه من إثارة الفتنة وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء بمراده "... وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جمهور المسلمين "[٥]، كما أن بنى أمية كانوا أقدر على أن يسايسوا الناس ويكسبوا تأييدهم بالمال والأمانى، وقد نصح بعض الصحابة للحسين بذلك، وخوَّفه أيضًا من غدر أهل العراق الذين غدروا بأبيه وأخيه[٦]، ونصح البعض لأهل المدينة وخوفهم الفتنة[٧]، فماذا كان موقف الحسن البصري من هذه الثورات؟

إن المادة التاريخية التى توفرت للبحث لا تظهر موقفًا واضحًا مفصلاً للحسن البصرى من هذه الثورات الثلاث، وقد كان الحسن البصرى يجل الحسن والحسين ابنى على، ويعتبرهما من مناقب الإمام على[٨]، وكان يعرف لأهل

(١) المسعودى: مروج الذهب ٣/ ٧٨.

(٢) الذهبى: تاريخ الإسلام ٥/ ٣٩ تحقيق عبد السلام تدمرى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٥/ ٤٨٠ - ٤٨٢، والمسعودى مروج الذهب جـ٣/ ٧٧، ٧٨، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ١٧٧، ١٨٠، ١٨١.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ١/ ١٨٠، ١٨١.

(٥) ابن خلدون: السابق ١/ ١٧٧.

(٦) انظر المسعودى: مروج الذهب جـ٣ صـ٦٤ - ٦٦.

(٧) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥ / ٤٨٣.

(٨) ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٨.

المدينة مكانتهم فهم أبناء الصحابة وفيهم بقايا الصحابة، وكان يعرف أيضًا لابن الزبير مكانته، وكان يدرك أن أصحاب هذه الثورات مجتهدون، إلا أنه كان يرى أن أسباب النجاح ليست متوفرة لهذه الثورات، وكان موقفه العام يرفض الثورات التى من هذا النوع، وإن كان أهلها على حق تجنبًا للفتن وسفك الدماء، ويرجو لو صبر أهلها، وقد جاء حديثه على ثورة الحسين حديثًا موجزًا فقال: " أقبل مع الحسين ستة عشر رجلاً من أهل بيته "(١)، وكأنه كان يشفق على الحسين وأهل البيت أن يخرجوا فى عدد قليل، مع معرفتهم بأنه ليس من السهل على الأمويين أن يتهاونوا فى أمر الخلافة، ومعرفتهم بخذلان أهل الكوفة لعلى بن أبى طالب وولده الحسن من بعده، وأهل المدينة لم تكن لديهم قوة يدفعون بها جيش الأمويين إذا ذهب إليهم؛ ولم يكن الحسن مستريحًا لخروج ابن الزبير، وكان يرى أنه لن يصل إلى شئ، وكتب إليه رسالة عندما رفض أن يبايع الأمويين ودعا لنفسه بالخلافة، يدعوه فيها إلى الصبر، ويلمح له بأن سوق الأمويين فى الإمامة أجزى عند الناس من سوق ابن الزبير، فقال: " إن لأهل الخير علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم، فمنها: الصبر على البلاء والرضا بالقضاء، وإنما الإمام سوق فما نفق فيها حُمل إليها، فانظر أى سوق سوقك "(٢)

إن عدم تأييد الحسن لهذه الثورات كان لعدم توفر أسباب النجاح لها، وليس عن رضا كامل بالأمويين وسياستهم فكان من باب اختيار أخف الضررين، ولم يكن راضيًا عن الأسلوب الذى عالجها به الأمويون، فسجل حزنه البالغ لاستشهاد الحسين، وفى ذلك يقول ابن الجوزى: " ولما بلغ الحسن مصرع الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنه بكى وانتحب وتأوه، وقال: واحسرتاه! ماذا لقيت هذه الأمة، قتل ابن دعيها ابن نبيها ! اللهم كن له بالمرصاد، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون "(٣)، وشدد النكير على

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣١٢.

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف جـ٥/ ١٩٦.

(٣) ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٤، لما قتل الحسن بكى حتى اختلج جنباه ثم قال: " واذل أمة قتل ابن دعيها ابن نبيها " أنساب جـ٣ / ٢٢٧- ٢٢٨.

الأمويين لانتهاكهم حرمة حرم رسول الله ﷺ وحرمة مكة المكرمة، وهم يقومون بالقضاء على ثورة أهل المدينة وحركة ابن الزبير، وأظهر عدم رضاه عن ذلك عندما قال له بعض أصحابه فى بعض المواقف: " والله لكأنك يا أبا سعيد راض عن أهل الشام - الأمويين - فقال: " أنا راض عن أهل الشام؟ قبَّحَهم الله وبرَّحَهم، أليس هم الذين أحلوا حرم رسول الله ﷺ يقتلون أهله ثلاثة أيام وثلاث ليال، قد أباحوهم لأنباطهم وأقباطهم يحملون الحرائر ذوات الدين، لا يتناهون عن انتهاك حرمة، ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام؛ فهدموا الكعبة، وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها، عليهم لعنة الله وسوء الدار "[1]

موقفه من الشيعة:

كان الحسن البصرى محبًا لآل بيت رسول الله ﷺ؛ فكان يجل الإمام عليًا ويدفع عنه، وكان متألمًا لما أصاب آل البيت فى كربلاء[2]، ولكن هذا التقدير والحب لم يمنعه من رفض المذهب الشيعى الذى يقول: إن الإمامة حق مقدس لآل بيت رسول الله ﷺ لا ينبغى لأحد سواهم، وتجلى هذا الرفض فى توليه لأبى بكر وعمر وعثمان وترضيه عليهم، وفى عقيدته المعتدلة فى على بن أبى طالب كما سبق أن ذكرنا[3]؛ بل إنه قال: إن إمامة أبى بكر كانت بالنص الخفى من رسول الله ﷺ عندما استخلفه ليصلى بالناس فى مرض وفاته[4]، وبهذا القول نسب الحسن البصرى فى بعض كتب الفرق إلى جماعة البكرية، وهم الذين قالوا: إن إمامة أبى بكر كانت بالنص الخفى من رسول الله ﷺ[5]، "وكان ذلك معارضة سياسية للشيعة ولقد نشأت البكرية عندما ظهرت مطاعنهم فى إمامة أبى بكر بنشأة نظريتهم فى الوصية، ومعنى هذا من الناحية السياسية

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٦/ ٥٨٧، ٥٨٨، وابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ١٧٠.

(٢) ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٤، وأنساب الأشراف ٣/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) المرتضى: أمالى المرتضى ١/ ١١٢، وابن الجوزى: الحسن البصرى ،٣٨، الغزالى: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٧٤.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ١/ ٥٦٠، ٥٦١.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة ١ / ٥٠٠ .

أن الحسن البصرى رفض نظرية الشيعة فى الإمامة وما رتبوه عليها من مواقف سياسية، وأكد هذا الرفض عندما بايع الأمويين وظل فى طاعتهم على الرغم من نقده الشديد لهم، ولم يؤيد ثورات الشيعة ضدهم، وكان الحسن يعلن عن آرائه السياسية هذه فى مجالسه التى كان يرتادها الكثير من الناس، وكان الناس يتأثرون بكلامه ويهتدون بآرائه، وهذا يعنى أيضًا من الناحية السياسية أن الحسن البصري كان من العوائق في طريق المذهب الشيعي وانتشار نظريته فى الإمامة؛ ولذلك أبغضه الشيعة، ورأوا لدروسه وأقواله أثرًا كبيرًا فى تدعيم ملك بنى أمية الذين يرفضونه؛ حتى قالوا: " إنه لولا سيف الحجاج ولسان الحسن لما قام لبنى مروان أمر فى الدنيا "، ولكن شتان بين لسان الحسن وسيف الحجاج وإن اشتركا فى دعم ملك بنى أمية؛ فالحسن البصرى لم يكن يعمل بقصد مصلحة الأمويين، وإنما كان يعمل من أجل المصلحة الإسلامية العامة وتجنب الفتن؛ ومن أجل تنقية الأجواء السياسية من المذاهب والأفكار التى رآها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ومن هنا رفض التشيع، وهو مع رفضه للتشيع ينتقد بنى أمية وينكر عليهم أخطاءهم؛ أما الحجاج فكان إخلاصه لبنى أمية ووجههم. وقد رمى الشيعة الحسن البصرى أيضًا بأنه يبغض على بن أبى طالب، ولما رفع إليه هذا الاتهام أكب يبكى طويلاً، ثم رفع رأسه فقال: " لقد فارقكم بالأمس رجل كان من مرامى الله عز وجل على عدوه، ربانى هذه الأمة، ذو شرفها وفضلها، وذو قرابة من النبي ﷺ قريبة، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا بالغافل عن حق الله، ولا بالسروقة من مال الله، أعطى القرآن عزائمه فيما له وعليه، وأشرف منها على رياض مونقة وأعلام بينة، ذلك على بن أبى طالب "[1]، فحب الحسن البصرى وتقديره للإمام على ظاهر، وعقيدته السياسية فيه معتدلة ليس فيها غلو الشيعة ولم يتأثر باتهامات الشيعة له، وظل على موقفه الرافض لمذهبهم، وما فيه من آراء سياسية.

---

(١) المرتضى: أمالى المرتضى ١/ ١١٢، وابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٨.

ثورة ابن الأشعث :

كان عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث يقوم ببعض الفتوحات فى إقليم سجستان، وقابلته بعض العقبات؛ فتوقف، وأرسل إليه الحجاج بن يوسف يأمره بمواصلة الفتح؛ فوقع بينهما خلاف، وخلع ابن الأشعث طاعة الحجاج واتجه من سجستان إلى العراق لحرب الحجاج سنة ٨١ هـ[١]، وأرسل الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بالأمر؛ فاهتم عبدالملك، وأمر الحجاج بالجد فى شأن ابن الأشعث، وسار الحجاج من البصرة لملاقاة ابن الأشعث حتى نزل تستر[٢]، وهناك كان أول تصادم مع قوات ابن الأشعث، وانكسر الحجاج، وذلك فى يوم النحر سنة ٨١هـ، ورجع إلى البصرة وتبعه ابن الأشعث، وتمكن ابن الأشعث من دخول البصرة فى آخر ذى الحجة سنة ٨١ هـ، فانضم إليه أكثر أهلها، وفيهم الكثير من القراء والكهول، وبايعوه على حرب الحجاج ومن معه من جند الشام، وخلع عبدالملك بن مروان[٣]؛ إذ كان أهل العراق موتورين من أهل الشام ويرون أنهم قد غلبوهم على أمر الدولة[٤]، ويرون الحجاج قد تجاوز الحد فى الظلم[٥]؛ وبلغ من شدة هذه الفتنة أن عبدالملك بن مروان أرسل إلى أهل البصرة والثائرين يعرض عليهم عزل الحجاج فى مقابل الصلح؛ درءًا للفتنة وحقنًا للدماء، وأن يجرى عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد فى العراق ويكون واليًا عليه مادام حيًا وعبدالملك خليفة[٦].

فماذا كان موقف الحسن البصرى من هذه الثورة التى انضم إليها الكثير من الفقهاء، وهددت الدولة الأموية تهديدًا شديدًا ؟

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٣٧، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ٤/ ٧٧.

(٢) "تُستَر" بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى وراء. أعظم مدينة بخوزستان اليوم (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٣٤) .

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٤١، وابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ ٧٩.

(٤) المرتضى: السابق ٣/ ١٠٥.

(٥) وابن الأثير: السابق٤/ ٧٩.

(٦) الطبرى: السابق ٦/ ٣٤٧،و ابن الأثير:الكامل فى التاريخ ٤/ ٧٩.

لقد كان الحسن رافضًا لهذه الثورة مجاهرًا بالمعارضة القوية لها، وكان يرى بنافذ بصيرته أنها فتنة، ويقول: " إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل "[1]، وذلك عندما يفيق الجاهل على آثارها المدمرة؛ وقد ذهب جماعة من القراء المنضمين إلى ابن الأشعث في ثورته إلى الحسن البصرى، وقالوا له: " يا أبا سعيد هات ما عندك وتكلم بما ترى؛ فقال: إنى أرى أنها فتنة صماء؛ فإنكم لم تختلفوا فى رب ولا نبى ولا كتاب ولا قبلة، فرحم الله عبدًا اتقى ربه ونظر ليوم معاده ! " ولكن هؤلاء لم يقبلوا كلامه واتهمه بعضهم بالرياء والمداهنة[2]، وذهب إليه أيضًا جماعة من كبراء العرب وقواد الناس في فتنة ابن الأشعث؛ ليستطلعوا رأيه وقالوا له: " يا أبا سعيد، ما تقول في هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام " . . . " وذكروا بعض مساوئ الحجاج، فقال لهم الحسن: " أرى ألا تقاتلوه فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين "؛ فلم يقبلوا منه أيضًا، وخرجوا من عنده وهم يقولون " نطيع هذا العلج ! "[3]، وكان سعيد بن يسار أخو الحسن البصري منضمًا إلى الثائرين، ويحض الناس على الخروج على الحجاج، والحسن يحض الناس على عدم الخروج وعدم الخوض في الفتنة، وحاول أخوه سعيد أن يقنعه بالانضمام إلى الثائرين، والاكتفاء بالثورة على الحجاج دون خلع عبدالملك بن مروان، وقال له: " ما ظنك بأهل الشام إذا لقيناهم غدًا ، فقلنا: والله ما خلعنا أمير المؤمنين ولا نريد خلعه، ولكنا نقمنا عليه استعماله الحجاج فاعزله عنا ؟ "؛ فأبى الحسن الدخول فى هذه الفتنة، ودعاهم إلى السكينة والتضرع إلى الله، وبين رأيه فى جند الشام بأنهم أهل الدنيا، إذا ما ألقمهم الحجاج دنياه فعلوا ما يريد[4]وكان أخوه سعيد يتهمه بأنه يسكت على أفعال الحجاج مخافة الحبس[5].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (ط. دار الكتب العلمية) ٧ / ١٢٢ .

(٢) ابن أعثم الكوفى: كتاب الفتوح ٧: ١٤٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ٧/ ١٦٤.

(٤) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦٤.

(٥) السابق: ١٦٦.

هكذا رفض الحسن هـذه الفتنة وتمسك برأيه فيـها ولم يأبه لاتهـامه بالرياء والمداهنة من جانب بعض القراء، أو بالاستهزاء به بأنه علج من قبل بعض قواد العرب، أو رميه بالخوف من حبس الحجاج من جانب أخيه أو غيره، وظل ثابتًا على موقفه يدعو الناس إلى عدم الخروج والخوض فى الفتنة.

وكان هذا الموقف مـزعجًا لابن الأشـعث ومن معه لمـكانة الحسن بين أهل البصرة وتأثرهم برأيه؛ فـقد أخذ الكثير من الناس يتـباطأ عن ابن الأشعث، بل إن جماعات مـن الجند الذين جاءوا مع ابن الأشعث من سجستـان قد أصابهم الفـتـور عن الثـورة عندمـا التقـوا بأهليـهم فى الـبصـرة حـتى توعـدهم ابن الأشـعث[1]، ولابد أنهم تأثروا أيـضًـا بموقف الحـسن؛ ولذلك اقـتـرح بعض الثـائرين الاجتـهاد فى ضم الحـسن إلى الثـورة، وقالوا لابن الأشـعث: " إن أحببت أن يقتلوا حولك كـما قتـلوا حول جمل عـائشة فأخـرج الحسن "[2]، فأرسل ابن الأشعث إلى الحـسن من أكرهه على الخروج، فخرج الحـسن عازمًا على الإفلات إذا وجد فرصـه مواتية، فلما غفلوا عنه ألقى بنفـسه فى نهر حتى نجـا منهم، وكاد يهلك فى هذا اليـوم[3]، ولا شك أن هذا أثر في مـوقف ابن الأشعث، فـالذى أكرهه على الخـروج ليقـتل الناس حوله دفـاعًا عنه واقـتناعًا بالثورة التى خرج فيها يلقى بنفسه فى نهر، مـعرضًا نفسه للخطر، مؤكدًا رفضه للثورة؛ مما فتّ فى عضد الناس.

وقد دارت مـجمـوعة من المعارك العـنيفة بين قـوات الحجـاج وقوات ابن الأشعث كانت مـعظمها على الحجـاج وجنده، ولكن النتيجة في النـهاية كانت لصالح الحـجاج ومن معـه، وانهزم ابن الأشعث، بعـد أن قُتل عدد كبـير من الجانبين وفيهم الـكثير من القراء[4]، وتعرض الأسرى ممن كان مع ابن الأشعث لفتنة الشهادة على أنفسهم بالكفر لخروجهم على الدولة من قبل الحجاج، وتبيَّن

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ١٧٧، و ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٦٣.

(٢) خليفة بن خياط: السابق ١٨٨.

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٨٣.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة صـ١٧٨، ١٨٠، ١٨١، والطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٤٧.

للناس صدق ما كـان يحذر منه الحسن من الفتن والدخول فيهـا، وازداد التفاف الناس حوله والأخذ بآرائه، وظهر ذلك واضحًا فى فتنة أخرى وقعت فى العراق من جانب المهالبة، وكان للحسن دور كبير فى رفضها ومقاومتها.

ثورة المهالبة:

كان يزيد بن المهلب واليًا على خراسان فى أيام سليـمان بن عبدالملك، وقد كتب إليه عمـر بن عبدالعزيز سنة ١٠٠ هـ أن يستـخلف على عمله ويأتى إليه فى الشام؛ فاستخلف يزيد ولده، وقدم من خراسان إلى واسط ثم ركب السفن يريد البصرة، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدى بن أرطاة والى البصرة أن ينفذ إليه يزيد بن المهلب مـوثوقًا؛ ففـعل؛ وكان عمر يبـغض يزيد بن المهلب وأهله ويقول: " هؤلاء جبابرة، ولا أحب مثلهم "، وطالبه بمال كان قد كتب به إلى سليمان بن عبدالملك، فلم يؤده، فحبسـه عمر بحصن حلب، وظل فى محبسه حتى بلغه مرض عمر بن عبدالعزيز[١]؛ فلما اشتد مرض عمر خاف ابن المهلب من يزيد بن عبدالملك- ولى الأمر بعد عمر بن عبدالعزيز - لخلاف كان بينهما، فهرب من المحبس سنة ١٠١هـ[٢] وتوفى عمر فى رجب سنة ١٠١ هـ[٣].

لجأ ابن المهلب إلى البصرة حيث قومه الأزد، وأعلن الثورة على الأمويين، وغلب على البصرة، وأخذ عامل يزيد عليها- عدى بن أرطاة - وحبسه، وخلع يزيد بن عبدالملك[٤]، ودعا الناس إلى الكتاب والسنة، وحـثهم على جهاد أهل الشـام، وزعم أنه أعظم أجرًا من جـهاد التـرك والديلم[٥]. فمـاذا كان مـوقف الحسن البصرى من هذا الأمر ؟

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٤/ صـ١٥٥.

(٢) ابن الأثير: الـسابق ٤/ ١٦٠، ١٦١.

(٣) ابن الأثير: السابق ٤/ ١٦١.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٥٧٨، مجهول: العيون والحدائق صـ٥٨.

(٥) الطبري: السـابق ٦/ ٥٨٧، وابن أعثم الكوفى: كتـاب الفتوح ٨/ ٨، ٩، وابن الأثيـر: الكامل فى التاريخ ٤/ ١٧٠.

لقد أرسل عدى بن أرطاة - قبل أن يقبض عليه يزيد بن المهلب - الحسن البصرى فى جماعة إلى المهالبة ليكفوا عن الفتنة، وتكلم الحسن البصرى فى هذا المقام كلامًا جيدًا داعيًا إلي وحدة الصف، وعدم الخوض في الفتنة، حتى قال بعض من سمعه: " والله ما تمنيت كلامًا قط أحفظه إلا كلام الحسن يومئذ[1] ، وقال ابن المهلب نائب المهالبة على البصرة للوفدُ " : "إنكم واطأتم عديًا على هلاكنا، وليست طاعته بواجبة علينا "، فقال له الحسن: كذبت، فغضب ابن المهلب، وسب الحسن، وأخذ بقائم سيفه وقال: " والله لولا أن أُعَيَّر بقتلك وأنت في منزلي لضربت عنقك، فانك عبدقد غررت أهل المصر بتخاشعك، وقد حمقت نفسك، وعدوت طورك وقدرك، ومضي في ثورته لولا أن هدأه المفضل بن المهلب والحسن ساكت "[2] . وفشلت الوساطة .

إن الحسن البصري لم يكن مقتنعًا بأسباب ثورة يزيد بن المهلب، ويراه صاحب فتنة كبيرة، وقد اكتوي الناس بنيران الفتن؛ وأقربها فتنة ابن الأشعث، لذلك كان الحسن يخذِّل الناس عن ابن المهلب بكل قوة، فعندما سمعه يدعو إلي الكتاب والسنة فوق المنبر، قال بصوت مرتفع: " والله لقد رأيناك واليًا ومُولًّى عليك، فما ينبغي لك ذلك "، وأخذ بعض أصحاب الحسن بيده وفمه فأجلسوه، ولم يلتفت ابن المهلب إلي قوله، ومضي في خطبته [3]؛ فالحسن البصري يعرف تاريخ المهالبة في خدمة بني أمية، ومنذ وقت قصير كان يزيد بن المهلب واليًا لسليمان بن عبدالملك على خراسان، وكان يبذل جهده في طاعتهم وإرضائهم، ولو بظلم الناس، فما الذي غيره هذا التغيير المفاجئ؟ إنها المآرب الخاصة . وأخذ الحسن يجهر بذلك بين الناس وهو يسمع أتباع ابن المهلب يدعون الناس إلي الكتاب والسنة وسنة العمرين، فيقول:

" إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بها

---

(١) الحاجظ: البيان والتبين ٢ / ١٧٣

(٢) مجهول: العيون والحدائق ، صـ ٥٣ وانظر صـ٥٩ -٦٦

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦ / ٥٨٧، وابن الأثير الكامل في التاريخ ٤ / ١٧٠ والعيون والحدائق صـ ٥٩

إلي بني مروان، يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قصبًا، ثم وضع عليها خرقًا، ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم "، ويقول تعقيبًا على دعوة ابن المهلب الناس " إلي سنة العمرين " ، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله، ثم يُردَّ إلي محبس عمر الذي فيه حبسه " [1] وذلك إذا كان صادقًا فيما يدعو إليه.

وواصل الحسن دعوته الناس إلي الكف، وتحذيرهم من الدخول في الفتنة، والتف حوله جماعة كبيرة من أهل البلاد؛ حتي تضايق عبدالملك بن المهلب نائب المهالبة على البصرة، وأحس بقوة تأثير الحسن البصري على الرأي العام؛ فرماه بالرياء والضلال، وقال في بعض خطبه وهو يحض الناس على الجد والاحتشاد لمحاربة قوات الخلافة: " ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي - ولم يُسَمِّه - يثبط الناس " [2]، وهدد الحسن بالقتل إن لم يكف عن تثبيط الناس عن الانضمام إلي المهالبة وتجميعهم ضدهم، ورمي المتجمعين حول الحسن بأنهم من سقاط الأُبُلَّةِ وعلوج فرات البصرة؛ فغضب عامة الناس للحسن، وهموا بالوثوب على مروان بن المهلب، وقال له جماعة من أصحابه: " لو أرادك ثم شئت لمنعناك "، فأبي الحسن ذلك وقال لهم: " قد خالفتكم إذًا إلي ما نهيتكم عنه ! آمركم ألا يقتل بعضكم بعضًا مع غيري، وأدعوكم إلي أن يقتل بعضكم بعضًا دوني، وبلغ ذلك ابن المهلب؛ فاشتد على المتجمعين حول الحسن البصري وأخافهم حتي تفرقوا، ولكنه قدر خطورة التعرض للحسن بالإيذاء مع مكانته الكبيرة بين الناس، فسكت عنه، وواصل الحسن نهي الناس

---

(١) الطبري: السابق ٦ / ٥٨٧، وانظر بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح ٨ / ٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤ صـ ١٧٠ . ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن فتنة بين تميم والأزد في البصرة نشبت عقب وفاة يزيد بن معاوية، وكان من رءوس هذه الفتنة رجل يعرف بمسعود الأزدي، وفي الوقت نفسه كان يدعو الناس إلى السنة وينهاهم عن الفتنة، وقد شهد الحسن البصري هذه الفتنة، وكان متضايقًا منها وانتقد مسعودًا الأزدي في موقفه، فقال: " فأقبل مسعود من هاهنا وأشار بيده إلى منازل الأزد من أمثال الطير، معلمًا بقباء ديباج أصفر، مغيرًا بسواد، يأمر الناس بالسنة، وينهى عن الفتنة: ألا إن من السنة أن تأخذ فوق يديك " وقد قتل مسعود هذا سنة ٦٤ هـ . (الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/٥٠٣، ٥٢٠).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦ / ٥٩٤، وابن كثير: البداية والنهاية ٥ / ٢٢٩

عن الفتنة .[1]؛ مما صرف الكثير من الناس عن الانضمام إلي هذه الثورة، وقد تمكن الأمويون من القضاء عليها، وازداد الحسن البصري مكانة في أعين الناس.

ولعلنا بعد ذلك نتساءل: ألم يكن الحسن معارضًا لبني أمية ؟ فلماذا عارض هذه الثورات والحركات التي قامت ضدهم، هل هناك تناقض في موقفه هذا ؟

إن الحسن البصري، لم يكن ضد الثورة على الإمام الجائر على إطلاقها، فقد ذكره ابن حزم ضمن علماء السنة الذين قالوا بالثورة عند التمكّن، فقال: "وذهب طوائف من أهل السنة وجميع المعتزلة وجميع الخوارج والزيدية إلى أن سلّ السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب؛ إذ لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك، قالوا: فإذا كان أهل الحق في عصابة يمكنهم الدفع، ولا ييئسون من الظفر، ففرض عليهم ذلك، وإن كانوا في عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا في سعة من ترك التغيير باليد، وهذا قول على بن أبي طالب والحسن البصري: "[2]

فهم يشترطون أن يكون الثوار والخارجون على حق أو مذهب صحيح، وتكون لديهم القوة الكافية للتغيير، أما إذا لم يكن الثوار على حق أو ليست لديهم القدرة على التغيير، فليس هناك مجال للثورة، وعلي المتضررين أن يصبروا؛ ولذلك رأينا الحسن البصري ينظر إلي الأمور نظرة فاحصة، فلم يؤيد أي تحرك سياسي للشيعة أو الخوارج؛ لأنه كان يرفض مذهبهم الذي بنوا عليه مواقفهم السياسية، وكان يراهم بعيدين عن الحق، ونظر إلي ثورة الإمام الحسين وثورة أهل المدينة على أن عناصر القوة التي تؤدي إلي النجاح ليست متوفرة لهما، وفي ثورة ابن الزبير كان يري أن سوق الأمويين في التعامل مع الناس وجذبهم إليهم بالمال أفضل من سوق ابن الزبير، ونظر إلي فتنة ابن الأشعث ويزيد بن المهلب على أنهما فتنتان لابد من تحاشيهما، ولم يكن مقتنعًا

---

(١) الطبري: السابق ٦ / ٥٩٤، وابن أعثم الكوني: كتاب الفتوح ٨ / ١٣ / ١٤ وانظر مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق صـ ٦٦

(٢) ابن حزم: الفصل حـ٤ صـ١٣٢.

بأهدافهما، ولم تكن لديه ثقة في قياداتهما، وكان يخشي عواقبهما الوخيمة على وحدة الصف الإسلامي، وأنهما لن تؤديا إلي الإصلاح المنشود.[1]

والحسن البصري - وغيره الكثير من الفقهاء - لم يفعلوا ذلك محاباة للسلطة الأموية، فسيرته ونقده الشديد للسلطة يدل على قوته، وعندما اتهمه بعض أصحابه بأنه راض عن بني أمية رفض ذلك، وأبدي عدم ارتياحه لهم[2]

لقد كان الحسن يرى أن يكف الناس أيديهم في أيام الفتن عن قتل بعضهم بعضًا، وعن إراقة الدماء، وقد سأله رجل في وجود جماعة من أهل الشام في أمر الفتن فقال: " يا أبا سعيد، ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث ؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء، ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ فغضب ثم قال بيده، فخطر بها ثم قال: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين[3] . فهو كان يدعو إلي الكف في أيام الفتن والحرب بين المسلمين، وألا ينضم أحد إلي هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

* * * *

(١) كان سعيد بن جبير مثلاً لا يريد الثورة علي الحجاج، وأرسله الحجاج إلي الثائرين مع ابن الأشعث قبل قدومهم البصرة لمنع الفتنة، فقال الثائرون لابن جبير: " إنا قد حبسنا أنفسنا عليك في الرأي ؟ قال: الرأي أن تكفوا عما تريدون، فان الخلع فيه الفتنة، والفتنة فيها سفك الدماء، واستباحة الحرم، وذهاب الدين والدنيا، فقالوا له: إنه الحجاج، وقد فعل وفعل، فذكروا أشياء. ولم يزالوا به حتى سار معهم وهو كاره " ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ٢ صـ٣٣.

(٢) العيون والحدائق صـ٥٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٦٤ .

المبحث الرابع

القيمة السياسية للحسن البصرى

يعتبر الحسن البصرى بمواقفه وآرائه ومكانته السياسية فى العصر الأموى ذا قيمة كبيرة بالنسبة للدولة الأموية على الرغم من تعرضه الشديد بالنقد لها؛ فقد دعَّم أركان هذه الدولة، ودعم وجودها بدخوله فى طاعة الأمويين، ودعوة الناس إلى طاعتهم، ونهيه عن الخروج عليهم فى ظل الظروف السياسية القائمة، ودعوة الناس للصبر على أذاهم، ووقوفه حجر عثرة فى وجه الخوارج والشيعة وثورتى ابن الأشعث وابن المهلب، ورفض خروجهم وثوراتهم، ودعوته إلى وحدة الصف والجماعة، ودعوة الناس إلى الكف عن القتال وعدم الدخول فى الفتن.

ودعم الدولة الأموية أيضًا بتأكيده على أهمية الدولة ووجود السلطان، فكان يقول: " لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضًا" (١)، وقال أيضًا:- "أربعة من الإسلام إلى السلطان: الحكم والفئ والجمعة والجهاد " (٢) وهذه واجبات الحكام فى الإسلام، وأعلن أن الأمويين يقومون بهذه الواجبات، مشوبة بشئ من الظلم الذى يُتجاوز عنه فى سبيل المصلحة العامة ووحدة الجماعة؛ ولذلك سكت الأمويون عن نقد الحسن لهم فى أكثر الأحوال؛ لأنه لم يتجاوز النقد والمعارضة الكلامية إلى تأليب الناس ضدهم (٣)؛ بل كان يدعو الناس إلى الصبر على ما يقع منهم من أذى، وتبنى سياسة الكف والصبر عن عقيدة سياسية (٤) عنده دون أن يطلب الأمويون منه ذلك وكان يقول: " لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى

---

(١) ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٣٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) كان معاوية بن أبى سفيان يقول: " إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا " (الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٦) .

(٤) انظر ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٦٤، ١٦٥، ١٧٢، وابن الجوزى: الحسن البصرى ٤٦، ٤٧.

السيف فيوكلون إليه، فو الله ما جاءوا بيوم خير قط" [1]، وقرأ : ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾[2] ثم قال- عفا الله عنه -: " يا عجبا لمن يخاف ملكًا أو يتقى ظالمًا بعد إيمانه بهذه الآية. أما والله لو أن الناس إذا ابتلوا صبروا لأمر ربهم؛ يفرج الله عنهم كربهم، ولكنهم جزعوا إلى السيف فوكلوا إلى الخوف، وعندما سأله الناس عن الانضمام إلى ابن الأشعث، وذكروا أفعال الحجاج قال: "أرى ألا تقاتلوه، فإنها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسيافكم، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين "[3]. وكان الأمويون يقدرون منه هذا الدور الذى يسند الدولة، وحظى باحترامهم وتقديرهم، وقد أرسل إليه عبدالملك بن مروان يستجلى عن حقيقة قوله فى القدر، وكان الحجاج يقدر قيمة خطبه وكلامه فى الناس، ويقول عنه: "أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة، إذا شاء خطب وإذا شاء سكت " [4]، وكان الحجاج يقف إلى حلقته ويستمع إلى وعظه [5]، وكثيرًا ما كان يجلس إلى جنبه فى الحلقة، فيفسح الحسن له؛ فإذا انتهى من موعظته ضرب الحجاج بيده على منكبه استحسانًا، وقال: صدق الشيخ وبر، وأوصى الناس بالتردد على مجالسه، وعقَّب عليكلامه بكلام بليغ يستخرج الإعجاب من الحاضرين [6]، وكان الحسن يذهب أحيانًا إلى الحجاج فى داره فيخصه بالترحيب، ويدنى منزلته [7]، وازدادت مكانة الحسن عند الدولة بعد فتنة ابن الأشعث وفتنة ابن المهلب اللتين وقف الحسن ضدهما بقوة.

ومع تقدير الدولة الحسن البصرى، إلا أنه كان تحت الرقابة الشديدة، وكان

---

(١) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦٤، ١٦٥.

(٢) سورة الأعراف آية ١٣٧ .

(٣) ابن سعد: السابق ٧/ ١٦٣، ١٦٤.

(٤) الجاحظ: البيان ١/ ١/ ٣٩.

(٥) الذهبى: تاريخ الذهبى ٣/ ٣٥٢، إحسان: السابق ٤٤.

(٦) الغزالى: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٨٣ إحسان: السابق ٤٤.

(٧) الغزالي: السابق: ٢/ ٣٠٣.

مـا يدور فى مـجلسه يصل إلـى الأمويين، وكـان هو يدرك ذلك ويقـول: " وإنه ليجالسنا فى حلقتنا هذه قوم ما يريدون به إلا الدنيا " ويقول: " رحم الله عبدًا لم يتقوَّل على نا ما لم نقل " [١]، ولم يَسلم الحسن من الأذى، إذ كان الحجاج يهدده ويخوفه بالقـتل بين الحين والآخر [٢]، وقد قطع عنه العطاء فـترة [٣]، وفى ولاية مالك بن المنذر العبدى على شرطة البصرة من قبل خالد بن عبدالله القسرى أرسل مالك إلى الحـسن يتهـدده لتعـرضه للدولة بالنقـد بين جموع النـاس، ويقول له: "اعتزل مسجدنا فـإنك تعيب أمير المؤمنين والأمير " [٤]، ولما وصل خبر ذلك إلى خالد القسرى أمر مـالكًا ألا يتعرض للحسن بسوء [٥]؛ إذ كانت الدولة فى حاجة إلى الحسن، وما يؤكد عليـه فى دروسه من الصبر على أذى الحكام، وكف الأيدى عن القتال والدخول فى الفتن محافظة على الجماعة ووحدتها.

ومع تقدير الأمويين للحسن ومكانـته إلا أنه لم تكن له حظوة خاصة، ولم يكن قريبًا عند أحد من بنى أمـية؛ وذلك لاستقلال شخصـيته ونقده الواضح لما يراه من أخطاء فى الدولة، باستثناء عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، الذى قرَّب الحسن إليه، واقـترب منه الحسـن، وكان دائم التراسل مـعه [٦]؛ وذلك لأن عمر بن عبدالعـزيز كان يقوم بحركة إصلاح شـاملة فى الدولة، واجتهد أن يسيـر سيرة الراشدين، فـعدل فى حكمه، وأخـذ فى رد المظالم إلى أهلها، وقـرب العلماء والفقهاء، وطلب منهم مـعاونته فيما هو فيه من أمـور الحكم والرعية، وموالاته بالنصيـحة، وفى مقدمة هؤلاء الحـسن البصرى الذى رحب وغيـره من العلماء بهذا الاتجاه عند عمر [٧] ومدوا له يد العون، ورأوه راشدا جديرًا بالخلافة؛ بل

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ١٦٩.

(٢) العيون والحدائق.

(٣) الجاحظ: البخلاء ٢/ ١٦٤.

(٤) مجهول: العيون والحدائق ١٦٧.

(٥) السابق ٨٧.

(٦) انظر بعض الرسائل بين الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز فى ابن الجوزى: الحسن البصرى صـ٥٥، ٥٦.

(٧) انظر فى سيرة عمر وصلاحه المسعودى مروج الذهب ٣ / ١٩٣-١٩٥.

إن المعتزلة رأوه مستحقًا للخلافة بعدله، فقال عمرو بن عبيد: " أخذ عمر الخلافة بغير حقها، ثم استحقها بالعدل حين أخذها ". (١)

وقد بعث الحسن فى رسالة من رسائله إلى عمر بن عبدالعزيز يذم الدنيا، ويحذر منها، ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبدالعزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده، وقال: يرحم الله الحسن؛ فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأنصحه، ورد عمر على رسالة الحسن، وبيّن له تأثره بها، وسُرَّ الحسن بذلك، وأثنى على عمر أنه يقبل النصيحة ويقدرها، وعبر عن رضاه عنه وعن سيرته، قائلاً: لله أمير المؤمنين من قائل حقًا، وقابل وعظًا، لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المِنَّة، ورحم بسلطانه الأمة، وجعله بركة ورحمة (٢)، ولذلك اشترك الحسن في إدارة الدولة في عهد عمر بن عبدالعزيز، إذ ولاه عمر قضاء البصرة (٣)، وكتب إليه عمر أن يكتب إليه بصفات الإمام العادل ليستضئ بذلك في سيرته الإصلاحية، فكتب إليه الحسن رسالة بذلك (٤)، وأرسل إليه عمر يستشيره فيمن يستعين بهم في أمور ولايته، فكتب إليه الحسن يقول: " أما أهل الدين فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلا تريدهم، ولكن عليك بالأشراف، فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بخيانة(٥)، وكان عدي بن أرطاة والي البصرة في عهد عمر بن عبدالعزيز يرسل إلي عمر يستوضحه في بعض الأمور، فأرسل إليه عمر ألا يفعل، وأن يسأل في ذلك الحسن البصري، ويقول: " وايم الله لحسبك بالحسن، فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين، فرحم الله الحسن، فإنه من الإسلام بمنزل، ولا تقرئنه كتابي هذا "(٦) بل إن عمر بن عبدالعزيز كان يرسل

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ٣/ ٢٠٥.

(٢) ابن الجوزي: الحسن البصري صـ٥٥، ٥٦.

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ٥٥٤ .

(٤) انظر ابن الجوزي سيرة عمر بن عبد العزيز .

(٥) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٦١، وسيرة الحسن ٥١.

(٦) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز ١٠١.

إلي الحسن يسأله عما يشكل عليه من الأمور الدينية والسياسية [1]، وكان الحسن قريبًا من عدي بن أرطاة والي عمر بن العزيز على البصرة، وكان يأتي إلي مجلسه، ويطعم عنده، وكان عمر بن عبدالعزيز دائم السؤال عن الحسن البصري وصلته بوالي البصرة [2]، وندبه عدي بن أرطاة في جماعة إلي المهالبة الذين قاموا بثورتهم عقب وفاة عمر بن العزيز ليقلعوا عن الفتنة، وذهب الحسن إليهم، وبذل جهده في ذلك. [3]

وإذا كان الحسن البصري قد اشترك في إدارة الدولة في أيام عمر بن عبدالعزيز، وكان يشير عليه وهو يحاول الإصلاح؛ فإنه كان يتدخل في أمور الدولة، ويحاول الإصلاح طوال العصر الأموي، فكان يعمل على إصلاح الحكام وإصلاح المجتمع وإصلاح الفقهاء.

فبالنسبة لإصلاح الحكام كان الحسن البصري يدرك أنه ليس من السهل على الأمويين أن يقال لهم: ردوا الأمر شوري بين المسلمين ليختاروا خليفتهم [4]، وقد اكتفي الحسن البصري في هذا الجانب بنقد الأمويين في الطريقة التي وصلوا بها إلى الحكم، وتناقلوا بها السلطة فيما بينهم، وتقدم عندهم بنقد ما علمه من أخطاء، وقدم النصائح، وكان دائمًا يدعو إلي التأسي بسيرة رسول الله، ويذكِّر بعصر الراشدين، وما كان فيه من شوري وعدل ومثالية في الحكم والإدارة، وهو بذلك يلفت نظر الحكام إلي ما كان عليه الرسول ﷺ والراشدون؛ لعلهم يراجعون أنفسهم في ذلك، ويفكرون في العودة إلي سيرة الراشدين.

ومن أمثلة نصحه للولاة ما فعله مع ابن المنذر العبدي ومع ابن هبيرة وغيرهم.

فعندما أرسل إليه مالك بن المنذر العبدي - والي الشرطة في ولاية خالد

---

(١) البيهقي: سنن البيهقي ٨ / ٢٤٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبري ٧ / ١٧١.

(٣) الجاحظ: البيان والتبين ٢/ ١٧٣.

(٤) ابن خلدون (عنوان ولاية العهد) ص ٣٤ ، وماجد ٦٢ .

القسري على البصـرة - يقول له: " اعتزل مسجدنا، فـإنك تعيب أمير المؤمنين والأمير" ، نهاه خالد القسري عن أن يتعرض للحسن، فأرسل مالك إلي الحسن يقول له: إن أبا غسان يقرئك السـلام، ويقول لك: إن رأيت أن تأتي المقصورة فافعل، فجعل الحسن يقول: "إن أبا غسان يقرئك السلام، ويقول لك إن رأيت أن تأتي المقصـورة فافعل، " يردد ذلك ثـلاثًا" ، لا لا لا، ثم ذهب إلي مالك فوعظه، وقال له " اتق الله، لا تترجح في هذه الأماني فـإن أحدًا لم يعط شيئًا بأمنية دون عمل[1] .

ولما سأله ابن هبيرة عن رأيه فيما يتعرض له من التعارض بين الوفاء بحقوق الرعية وطاعـة الخليفة؛ قال له الحـسن: " قد سمعت قول الأمـير، يقول: إنه أمين أميـر المؤمنين على العراق، وعـامله عليهـا، ورجل مأمور عـلى الطاعة، ابتليتَ بالرعية، وأُلزمتَ حقهم، والنصيحة والتـعهد لما يصلحهم، وحق الرعية لازم لك، وحق عليك أن تحوطهم بـالنصيحة، وإني سـمعت عبـدالرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله ﷺ قال رسول ﷺ " من استرعي رعية فلم يُحطْها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة. " [2]

وبالنسبة لإصلاح الفقهاء :

قد اهتم الحسن البصري بإصلاحـهم، إذ رأي في كثير منهم ميلاً إلي حب الدنيـا [3]، والدخـول على الأمـراء لكسب مـودتهم وعطائهم، وكـان هذا لا يُعجب الحـسن، ولا يرضيه؛ لأن معنـي هذا أن يتحول هؤلاء الفقـهاء إلي أداة طيعة في أيدي الحكام، ويغضون الطرف عن أخطائهم، يقضون بهم أغراضهم، وفي هذا فساد للراعي والرعية، فالناس يـتأثرون بمن يحمل شعار الدين، فيظن الحاكم أنه على الصواب، وتقتـدي الرعية بالفقهاء، وقد خـرج الحسن البصري مرة من عند ابن هبيـرة؛ فوجد جماعة من القـراء على الباب، فنهرهم وقـال:

---

(١) العيون والحدائق : صـ٣٧.

(٢) الإحياء: ٢ / ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) ابن الجوزي: الحسن البصري صـ٤٦.

ما يجلسكم ها هنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالستهم مجالسة الأبرار، تفرقوا، فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشمَّرتم ثَمّ ثيابكم، وجززتم شعوركم، قد فضحتم القراء، فضحكم الله، ولو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم. (١)

ولقد ضرب الحسن البصري بنفسه مثالاً للفقيه الزاهد، ولا شك أن هذا هو الذي أعطاه الفرصة لأن ينتقد، ويتكلم بصراحة فيما يراه من مخالفات في الدولة، فقد رضي أن يعيش بين أخصاص البصرة وهي المنطقة التي يسكن فيها الفقراء والمساكين (٢)، وكان ينأى بنفسه أن يدخل على الأمراء إلا لحاجة أو عظة؛ احتراسًا من نقمتهم، أو تعريض نفسه للذل (٣)، وكان إذا أخذ عطاءه قسمه، ووزعه على الفقراء، وأبقي القليل لأهله، وذكر له أهله حاجتهم إليه، فقال " دونكم بغية العطاء، أما إنه لا خير فيه إلا أن يصنع به هذا(٤)، ورفض أن يطلب قطعة أرض عندما كان سليمان بن عبد الملك يوزع أرضًا بالبصرة، وعندما قال له ولده: إنهم في حاجة إلي هذه الأرض أبي، وقال: "والله ، ما أحب أن يكون لي ما بين كذا وكذا بزنبيل تراب".

وبالنسبة لإصلاح المجتمع :

فقد كان يري أن صلاح المجتمع والتزام الناس بطاعة الله أصل في الإصلاح السياسي، ولذلك كان يدعو الناس إلي التطهر، وكان إذا قيل له: ألا تخرج فتغيِّر؛ قال: " إنما يغير الله بالتوبة ولا يغير بالسيف. (٥)

ويقول في دروسه: إن النبي ﷺ قال: "عمَّالكم كأعمالكم، وكما

---

(١) الجاحظ: البيان والتبين ١ / ٣٩٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٨٦ ، وانظر ابن الجوزي الحسن البصري ٥٢، ٥٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبري ٧ / ١٧٦.

(٤) السابق: ٧/ ١٧١.

(٥) السابق ٧ / ١٧٢ .

تكونوا يول عليكم [1] . وعندما سأل البعض عن الخروج على الحجاج قال: "اتقوا الله وتوبوا إليه يكفكم جوره، واعلموا أن عند الله حَجّاجين كثيراً. [2]

وقد ازدادت مكانة الحسن بعد فتنة ابن الأشعث، وتبين للناس عمق نظرة الحسن وتقديره للأمور، وهو يكف الناس عن القتال، خاصة أن الناس تعرضوا لفتنة شديدة بعد انتهاء القتال، إذ كان الحجاج يقتل كل من لم يشهد على نفسه بالكفر من الأسري، كما أنه قتل التابعي الجليل سعيد بن جبير، وروي ابن سعد أن مسلم بن يسار كان ثقة عالمًا ورعًا وأرفع مكانة عند أهل البصرة من الحسن؛ حتى خرج مع محمد بن الأشعث، فوضعه ذلك عند الناس وارتفع الحسن عنه. [3]

* * * *

(١) ابن الجوزي: الحسن البصري صـ٥٧

(٢) السابق ٥٨

(٣) ابن سعد ٧ / ١٨٨ وقد توفي مسلم بن يسار سنة ١٠٠ أو ١٠١ هـ في خلافة عمر بن عبد العزيز (السابق ١٨٨/٧).

* المصادر والمراجع *

أولاً: المصادر:

١- ابن الأثير أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المتوفي ٦٣٠هـ:

-الكامل في التاريخ - طبعة بيروت - دار الكتاب العربي- مراجعة نخبة من العلماء الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م .

٢- ابن أعثم أبو محمد بن أحمد بن أعثم الكوفي ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م.

- كتاب الفتوح مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن. الهند. الطبعة الأولى (بدون). نشر دار الندوة الجديدة بيروت.

٣- البخارى: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م.

- التاريخ الكبير تحقيق الدكتور محمد عبدالمعيد خان. بيروت - مؤسسة الكتب الثقافية - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٤- البغدادي عبدالقاهر أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ

- الفرق بين الفرق- تحقيق محمد زاهد الحسن الكوثري نشر عزت العطار الحسيني. مصر ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

- أصول الدين. مكتبة المثنى بغداد الطبعة الأولى. استانبول - ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

٥- البلاذري أبو الحسن بن يحيى بن جابر ت٢٧٩هـ .

- أنساب الأشراف جـ١ تحقيق الدكتور محمد حميد الله. دار المعارف. الطبعة الثالثة جـ٣ تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي. دار الثقافة للمطبوعات. بيروت. لبنان.

٦- ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ت ٧٢٨هـ. - منهاج السنة جـ١ . تحقيق محمد رشاد سالم. طبع القاهرة ١٩٦٢م.

٧- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ١٥٠ - ٢٥٥ هـ .
- البيان والتبين٤ أجزاء في مجلدين تحقيق عبدالسلام هارون. مكتبة الخانجي. الطبعة الخامسة. القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- البخلاء. تحقيق أحمد العوامري، وعلى الجارم مطبعة دار الكتب المصرية جـ١ ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م، وجـ٢ سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.
٨- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي ت٥٩٧هـ.
- الحسن البصري: آدابه، نشأته، حياته، بلاغته، زهده، طريقته. تقديم حسن السندوبي. مطبعة الرحمانية. مصر. ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م.
- سيرة عمر بن عبدالعزيز. نشر بعناية محب الدين الخطيب. مطبعة المؤيد. مصر ١٣٣١هـ / ١٩٢١م.
٩- ابن حجر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ.
- تهذيب التهذيب جـ٢. طبع دار الكتاب الإسلامي. القاهرة.
١٠- ابن حزم أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المتوفي ٤٥٦هـ
- الفصل في الملل والأهواء والنحل - مكتبة السلام العالمية- بالقاهرة-(بدون).
١١- الحسن البصري: أبو سعيد الحسن بن يسار ت١١٠هـ .
- رسالة في القدر ضمن مجموعة رسائل العدل والتوحيد. دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة. دار الشروق. القاهرة . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١٢- ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ت٨٠٨ هـ.
-تاريخ ابن خلدون. المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ١ . بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
١٣- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (٦٠٨ - ٦٨١هـ):
- وفيات الأعيان تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر بيروت.

١٤- خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي ت ٢٤٠هـ.
- تاريخ خليفة بن خياط تحقيق د. مصطفى نجيب فواز، الدكتور حكمت كشلى فواز. دار الكتب العلمية. بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
١٥- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت ٢٧٥هـ .
- سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد - دار الفكر (بدون)
١٦- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م .
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام جـ٥ تحقيق عبدالسلام تدمري. دار الكتاب العربي - بيروت١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، جـ٧ تحقيق عبدالسلام تدمري الطبعة الثالثة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.
- سير أعلام النبلاء . طبعة ١١/١٤١٧هـ / ١٩٩٦م مجلد ١ تحقيق حسين الأسد مجلد ٣. تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي ومأمون صاغرجى مجلد ٤. تحقيق مأمون صاغرجي مجلد ١١. تحقيق صالح السمر.
١٧- ابن سعد أبو عبدالله محمد بن سعد الزهري ت ٢٣٠هـ .
- الطبقات الكبرى. دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٨- الشاطبى إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبى الغرناطى.
-كتاب الاعتصام - تصحيح محمد رشيد رضا - المكتبة التجارية - مصر
١٩- الشهرستاني محمد بن عبدالكريم ت ٥٤٨هـ.
- الملل والنحل. بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ت٤٥٦هـ خمسة أجزاء في مجلد واحد. مكتبة السلام. الفلكي. مصر.
٢٠- الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. ٢٢٤ - ٣١٠هـ.
- تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف. الطبعة الرابعة. القاهرة

٢١- الغزالى أبو حامد محمد بن محمد الغزالى ت ٥٠٥هـ.
- إحياء علوم الدين. دار الريان للتراث القاهرة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٢٢- القاضي عبدالجبار عماد الدين أبو الحسن بن أحمد.
- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين. تحقيق فؤاد سيد - الدار التونسية للنشر.
٢٣- ابن قتيبة الإمام الفقيه أبو محمد بن عبدالله بن مسلم ت ٢٧٦هـ.
الإمامة والسياسة . جزءان في مجلد. القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.
- عيون الأخبار دار الكتب المصرية ١٩٩٦م.
- المعارف. تحقيق ثروت عكاشة. دار الكتب المصرية ١٩٦٠.
٢٤- ابن كثير الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي ت ٧٧٤هـ .
-البداية النهاية. تحقيق الدكتور عبدالرحمن أبو ملجم وزملائه دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٢٥- الماوردي أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ت ٤٥٠هـ .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان (بدون).
٢٦- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (٢١٠ - ٢٨٥هـ) .
- الكامل تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالى مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
٢٧- مجهول - شرح العقيدة الطحاوية- حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، والتوضيح بقلم زهير الشاويش، المكتب الإسلامي .
٢٨- مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق تحقيق م.ج.دي جوج M. J DE GOEJE، ب. دي. جونج .P. DE JONG ليدن ١٨٦٩ .

٢٩- المرتضى الشريف أبو القاسم على بن الطاهر أبو أحمد الحسين المتوفى سنة ٤٣٦هـ .

- أمالى المرتضى الطبعة الأولى. مطبعة السعادة - مصر ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م.

٣٠- المسعودي أبو الحسن على بن الحسين بن على ت ٣٤٦هـ

- مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد المكتبة العصرية. بيروت - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٣١- أبو نعيم الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ت ٤٣٠هـ .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. مجلد ٢ مطبعة السعادة مصر. ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٣٢- النويري شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري ٦٧٧ - ٧٣٣هـ .

- نهاية الأرب في فنون الأدب مجلد ٦ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطبع والنشر. مجلد ٢١ تحقيق على محمد البجاوى. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٣- ياقوت الحموي.

- معجم البلدان: تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية- بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

٣٤- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ت ١٨٢هـ .

- كتاب الخراج. ضمن موسوعة الخراج. دار المعرفة بيروت - لبنان ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ثانيًا: المراجع:

١- إحسان عباس: الحسن البصري سيرته. شخصيته. تعاليمه وآراؤه، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي. مطبعة الاعتماد مصر ١٩٥٢م.

٢- أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثالثة. القاهرة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

٣- حسن السندوبي: مقدمته لكتاب الحسن البصري لابن الجوزي- مطبعة الرحمانية - بمصر ١٣٥٠هـ-١٩٣١م

٤- حسين عطوان (الدكتور): الفقهاء والخلافة في العصر الأموى، بيروت دار الجيل. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي

٥- حمدي مصطفى شاهين: تاريخ الدولة الأموية بين التحريف والإنصاف رسالة ماجستير بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد شلبي - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٦- عبدالحسين المبارك: من مشاهير أعلام البصرة. (بالمشاركة مع الدكتور عبدالجبار ناجي الباسري) ١٩٨٣م. منشورات مركز دراسات الخليج - جامعة البصرة

٧- عبدالرحمن سالم: (الأستاذ الدكتور): التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري. دار الثقافة والنشر والتوزيع. الفجالة. القاهرة. ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٨- عبدالمنعم ماجد (الأستاذ الدكتور): التاريخ السياسي للدولة العربية جـ٢. الطبعة الرابعة، الأنجلو - القاهرة - ١٩٧١م.

٩- على سامي النشار (الأستاذ الدكتور): نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ١ القاهرة - دار المعارف، الطبعة الثالثة ١٩٦٥م.

١٠- قطب إبراهيم محمد - السياسة المالية لعمر بن عبدالعزيز- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

١١- محمد ضياء الدين الريس (الأستاذ الدكتور): النظريات السياسية الإسلامية، الطبعة السادسة، دار التراث - القاهرة ١٩٧٦م.

١٢- محمد عمارة (الأستاذ الدكتور): الإسلام وفلسفة الحكم، طبعة دار الشروق الأولى. القاهرة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

١٣- نبيه عاقل (الدكتور): تاريخ خلافة بني أمية، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٥م.

* * * *